

# الدولة والرعايا\*

## (خليل إينالچك)

ترجمة عبد اللطيف الحارس

برزت الدولة العثمانية إلى الوجود حوالي سنة 1300 كمإارة تخوم صغيرة، كرّست نفسها للغزو (الجهاد) على حدود سلطنة السلاجقة، في آسيا الصغرى، مع الإمبراطورية البيزنطية. ولقد كان للغزوات التخومية الأولى، بخاصة، تأثيرها الكبير على الوجود التاريخي للدولة، طوال ستة قرون: مسار فتوحاتها الديناميكية، ونظامها العسكري الأساسي، وسيطرة الطبقة العسكرية داخل إمبراطورية تعايشت فيها وبنجاح عناصر إثنية - ثقافية ودينية متفاوتة. إن المجتمع الذي قام على هذه العناصر اتبع تقاليد الإمبراطوريات الإسلامية الأولى، إلا أن بعض مظاهره الأكثر تفرداً، كانت في الواقع من إنجاز العثمانيين أنفسهم.

إن عبور العثمانيين للدردنيل واستيطانهم أراضي أوروبية كان ذا أهمية حاسمة في تحوّل الدولة العثمانية من إمارة تخوم صغيرة وغير هامة، إلى إمبراطورية تضم البلقان وآسيا الصغرى. ويعود الفضل إلى سليمان باشا، ابن ثاني السلاطين العثمانيين أورخان (1324 - 62)، في إقامة أول مستوطنة عثمانية في أوروبا.

---

(\*) عن: Halil Inalcik, Empire and Population; In: An Economic and Social History of the Ottoman Empire 1300-1994. Edited By H. Inalcik with Donald Quataert. Cambridge University Press. 1994. pp. 11-43.

لقد رسّخ سليمان أولاً وجوده على شبه جزيرة غاليبولي سنة 1352 كحليف لجان كانتوكوزانوس «John Cantocuzenus» المدّعي للتاج البيزنطي . ثم تمكن بعد سنتين من احتلال مدينة غاليبولي المحصنة وجعل منها قاعدة قوية ومنطلقاً لفتوحاته في ثراث «Thrace» . واجتذب إليها وبسرعة مهاجرين أتراكاً من الأناضول، فلاحين لا يملكون أراضي، وبدواً، وكل أنواع الشعوب التي لا جذور لها، والباحثة عن حياة جديدة على ضفة المضيق الثانية . وهكذا ظهر إلى الوجود ما يسمى بالباشا سنجق Sancak، الذي تضمّن شبه جزيرة البلقان بكاملها .

وبعد فترة من الاضطرابات تلت موت سليمان المفاجيء سنة 1357، استؤنفت عملية فتح ثراث وبحماس متجدد تحت قيادة أخيه مراد . وفي سنة 1361، وقعت مدينة أدريانوبل Adrianople الهامة في أيدي القوات العثمانية . إن الفتح السريع لثراث سبب ذعراً في بيزنطية وفي أوروبا بعامة، لأن المداخل الأوروبية للقسطنطينية قد سقطت بسرعة في أيدي العثمانيين . وخلال الفترة الواقعة بين 1362 و 89، كان مراد الأول قد أخضع الجزء الأعظم من البلقان شمالي الدانوب وجعل من معظم السلالات المحلية أتباعاً للعثمانيين، خالقاً بذلك إمبراطورية تتألف من دول تابعة . وفي سنة 1389، وفي معركة كوزوفو - بولجي Kossovo-Polje، فشلت محاولة السلالات البلقانية الحاكمة، الموحدة القوى، في القضاء على السيطرة العثمانية .

وبسقوط والده في ساحة المعركة، استلم السلطان بايزيد الأول (1389 - 1402) السلطة وبحماس عزّز مواقعه في الأناضول . وفي سنة 1393، عاد إلى البلقان لتأسيس سيطرة مركزية على الإمارات السلافية متوسّعاً أكثر باتجاه الشمال . ونتج عن تنافس بايزيد مع هنغاريا في مناطق الدانوب الأدنى، ومع فيينا في الموره، وألبانيا، ومناطق بحر إيجه، ظهور تحالف هنغاري - فييني ضد العثمانيين . وعندما بدأ بايزيد حصاره للقسطنطينية، نجحت كل من هنغاريا وفيينا في تحريك حملة صليبية لوقفه . إلا أن بايزيد فاجأ الصليبيين في نيقوبوليس سنة 1396 وانتصر عليهم؛ معزّزاً بذلك وبشكلٍ راسخ الوجود

العثماني في البلقان ومكتسباً في الآن ذاته مكانة هامة لنفسه في جميع أرجاء العالم الإسلامي. وهو الأمر الذي جعل كلاً من مصر والشام تتحرران من تهديد أي هجوم صليبي. وبالإضافة إلى ذلك، لم يتردد السلطان العثماني في القضاء على السلالات التركية في الأناضول، في محاولة لضم كل الأراضي الواقعة غرب الفرات في آسيا الصغرى إلى مملكته. ومع كفاحه لتوسيع حدود مملكته وبناء دولة مركزية قوية على شاكلة الدول الإسلامية الكلاسيكية، أصبح بايزيد، وبشكل لا يمكن تجنبه، متورطاً مع الطبقة العسكرية الأصيلة في الأناضول، والتي باتت تتطلع الآن شرقاً نحو تيمور للحماية والإنقاذ.

أما تيمور، الذي كان قد ادّعى أنه وريث الإمبراطورية المغولية في إيران، فقد بات يدّعي الآن السيادة على كل بلاد الأناضول بما في ذلك الممتلكات العثمانية. وعندما تحدى بايزيد تيمور، تعرض لخسارة ساحقة في معركة أنقرة سنة 1402، وانهارت إمبراطوريته. ونتيجة لذلك، أعادت السلالات الحاكمة في الأناضول تأسيس ذاتها، واستعادت الدول التابعة في البلقان (بيزنطية، وولاشيا، وصربيا، وألبانيا) حريتها من جديد من العثمانيين.

الصراع الداخلي بين الأمراء العثمانيين المتنازعين بين سنتي 1403 و1413 لأضعف وبشكل كبير إمكانية عودة السلطة العثمانية بعيد موت تيمور سنة 1405. ولكن الاستقرار ما لبث أن عاد وبسرعة خلال عهدي محمد الأول (1413 - 21) ومراد الثاني (1421 - 51)، لأنهما استطاعا البناء على المؤسسات الصلبة السابقة للدولة العثمانية. كل القوى السابقة من جيش الانكشارية، مالكي التيمار السُباهيين، والعلماء والبيروقراطيين.. كانت لها مصلحة مشتركة في إعادة إحياء الدولة المركزية. وفي ظل قيادة قادرة، قدموا إسهامات هامة للعودة المميزة للدولة العثمانية المركزية. وواجهت الدولة منعطفاً خطراً عندما تمكن العثمانيون من رد هجمات صليبية هنغارية في البلقان في معارك زلاتيكا Zlatica سنة 1443، وفارنا سنة 1444، وكوسوفو سنة 1448. لقد أظهرت القوات العثمانية مجدداً قدرتها على افتتاح أراضٍ جديدة، مع تصميم واضح، هذه المرة، على فتح العاصمة البيزنطية نفسها.

ومما تجدر ملاحظته بعد العاصفة التيمورية التي أودت بالإمبراطورية العثمانية الأولى تحت قيادة بايزيد الأول، أن مركز جاذبية الدولة قد تحول نحو البلقان. ومن البلقان أعاد العثمانيون سيطرتهم على غرب وشمال الأناضول قبل وصول محمد الثاني، فاتح استانبول (1451 - 81)، إلى السلطة.

### تنظيم الفتح، التخوم ضد المركز

خلال مرحلة التوسع، خضعت الإدارة القائمة، وبشكل كبير، للمؤسسة العسكرية، التي كانت تهدف وبوضوح إلى نظام مركزي. السناجق، أو المقاطعات الفرعية، وضعت تحت قيادة حكام عسكريين عرفوا ببيكوات السناجق «Sanacak-begis» أو أمراء الألوية. هذه السناجق أصبحت جزءاً من مقاطعة الروملي (الموازية لرومانيا العهد البيزنطي)، والتي حُكمت بدورها من قبل بغلربيك «Beglerbegi» وهو حاكم عسكري مسؤول عن كل قوات المقاطعات بما فيها وحدات التخوم الخاصة.

قوات التخوم وعلى رأسها بيكوات التخوم «Uç begis»، كانت الأكثر فعالية في الجيش العثماني. لقد لعب أمراء التخوم هؤلاء دوراً هاماً في الشؤون الداخلية والخارجية للإمبراطورية خلال الفترة ما بين 1360 و1453. هذه القوات كانت منظمة تبعاً لقيادات عائلية وراثية؛ أمير تخوم (أوج - بيك) على الجناح الأيمن باتجاه الدانوب الأدنى وولاشيا، وأمير تخوم آخر على الجناح الأيسر باتجاه مقدونيا، وأمير تخوم ثالث في المركز باتجاه صوفيا وبلغراد. ومع استمرار الفتوحات فإن خطوط التخوم في هذه المقاطعات تقدمت إلى الأمام، من ناحية البلقان إلى الدانوب، ومن ثراث إلى مقدونيا ثم إلى ألبانيا والبوسنة، ومن فيليوبوبوليس Philiopopolis إلى صوفيا ونيش.

خلال فترة الانقطاع بعد خسارة سنة 1402، كانت السلطة الفعلية للدولة قد انتقلت إلى أيادي أمراء التخوم. إلا أن السياسة المركزية ما لبثت أن تزايدت أهميتها مع مراد الثاني (1421 - 51)، الذي عمد إلى تعيين قواد التخوم من بين رجاله الخاصين العاملين في القصر، إلى أن تمت لها السيادة

تحت قيادة محمد الثاني (1451 - 81). ولكن قبل انتهاء هذه العملية، كانت المنافسة قد نمت وبشكل خطير بين قوات التخوم تحت قيادة الأوج - بيك الوراثية، والفرسان مالكي التيمارات في الأراضي الداخلية. وفي الحقيقة، هذه المنافسة تساعد على تفسير العديد من الاضطرابات والثورات خلال هذه الفترة، بما فيها ثورة الشيخ بدر الدين سنة 1416 والتي حتى الآن، لم تفسر من خلال هذه الخلفية. المتنازعون على النفوذ من حول التاج العثماني لجأوا أيضاً إلى أحزمة التخوم، التي كانت دائماً مراكز نزاع ضد الحكومة المركزية.

ورغم ذلك، كان دور أمراء التخوم حاسماً في دفع الحدود العثمانية إلى الأمام، خلال هذه الفترة ذاتها. فتحت الضغط، وإنقاذاً لأنفسهم من الغارات المستمرة لرجال التخوم، ارتضى العديدون من أمراء وقياديي البلقان الانضواء طوعياً تحت ظل الراية العثمانية، لأنه وبمجرد أن تصبح هذه المناطق دافعة للجزية، يصبح سكانها غير المسلمين أهل الذمة ورعايا محميين من الدولة الإسلامية كما ينص على ذلك الشرع الإسلامي.

أما التحول من حالة دافعي الجزية إلى الضم الكامل والدمج داخل النظام العثماني، أي تحويل هذه المناطق وتسجيلها كسناجق، فقد تراوح توقيته تبعاً للظروف الخاصة لكل مقاطعة. وبشكل عام، فإن مراحل التحول قامت أولاً على تضييق حدود التبعية بإبعاد السلالات المحلية الحاكمة والعناصر الانفصالية، ثم إحلال نظام التيمار محلّ الأجهزة الإدارية المتبقية من الفترة ما قبل العثمانية، وجعله حجر الزاوية الأساسي في إدارة المقاطعات العثمانية.

سياسة الامتصاص التدريجي للأراضي المحتلة هذه استمرت كقاعدة حتى القرن السادس عشر. وضم هنغاريا لم يكن إلا حالة خاصة؛ لأنه عندما أصبح وجود هنغاريا المستقل غير ممكن في مواجهة خطر آل هابسبورغ، عندها فقط تحول حوض الدانوب إلى مقاطعة عثمانية تحت قيادة أمير الأمراء «belglerbegi». والظروف الخاصة فقط هي التي سمحت لمقاطعات مثل ولاشيا ومولدافيا، بالمقاومة ككيانات مستقلة حتى مرحلة متأخرة بعد القرن

السادس عشر .

ويمكن ملاحظة تراث عثمانيي التخوم الأوائل في التقسيمات الإثنية المميزة للبلقان تحت الحكم العثماني . فمناطق الحدود في ثراث Thrace ، شرقي بلغاريا ، ومقدونيا ، وتساليا Tessaly في القرن الرابع عشر ، أصبحت على التوالي مناطق تسيطر عليها الهجرة والثقافة التركية ، وكذلك كان الأمر في المراكز الحدودية الأخرى مثل بلوفديف Plovdiv ، صوفيا Sofia ، وباباداغ Babadag ، وسيلستر Silister ، وفيدين Vidin ، وسكوبجي Skopje ، وسرس Seres ، وتريكال Triccala وأرجيرو كسترون Argyrocastron . ففي هذه المناطق اتبعت المستوطنات الكثيفة للمزارعين الأتراك في القرى ، الطريقة نفسها التي اتبعها الأتراك في توسعهم غرب الأناضول ، وكان الرواد ؛ تكايا الدراويش الصوفية ، ومن استقر من مجموعات اليوروك Yörük نصف الرعوية .

### ظروف التوسع العثماني في أوروبا

مرّ الفتح العثماني للبلقان ، كما بيّنا ، بمراحل عدة خلال نصف قرن 1352 - 1402 . وكانت عوامل عدة قد مهدت الطريق لهذا الفتح . ف شبه جزيرة البلقان في ذلك الوقت كانت تضم خليطاً من دويلات صغيرة ، مقسمة بين زعماء إقطاعيين أو سلاطات حاكمة . وقد استغل العثمانيون التنافس القائم بين هذه القيادات المحلية من أجل توسيع مجال سيطرتهم ، كحلفاء لهم في البدء ، ثم كحماة لهم فيما بعد . هنغاريا في الشمال ، والبندقية «Venice» في الجنوب والغرب ، حاولتا أيضاً الاستفادة من هذه التجزئة السياسية . لكن لأنّ حكمهما كان ستتبعه بالضرورة سيطرة كاثوليكية تنظر إلى المسيحيين الأرثوذكس كمنشقين ، فإن شعوب البلقان قاومتهمما بشكل عام . وكحماة للكنيسة الأرثوذكسية ، أعطوا مكانة متميزة للإكليروس في تنظيمات دولتهم ، برز العثمانيون كقوة في البلقان منذ الفتوحات الأولى ، على الرغم من المساعي المناهضة لكل من هنغاريا والبندقية . وبإمكاننا في الواقع ، ملاحظة العديد من الأمثلة على تعاون الكهنة الأرثوذكس المحليين مع الدولة العثمانية .

أما الأرستقراطيون ورجال البلاط المحليون في دول البلقان فقد اتبعوا سياسةً مؤيدةً للغرب بشكل عام. وكمقابل لمساعدات الغرب العسكرية، فإن هذه العناصر النافذة وعدت بالاعتراف بسيادة المذهب الكاثوليكي الروماني؛ وهذا ما أدى إلى ابتعاد هذه الشعوب عن زعمائها الإقطاعيين. لقد كان هناك دائماً حزبٌ مؤيدٌ للعثمانيين ضمن النخبة الحاكمة.

إلا أن الظروف الاجتماعية التي كانت سائدة في بلقان القرن الرابع عشر، هي التي جعلت التوسع العثماني ممكناً. فمع انحطاط السلطة البيزنطية المركزية، كما ترى الأبحاث المعاصرة، تمكن مالكو الأراضي الكنسية والعسكرية الواسعة في المقاطعات، من زيادة نفوذهم، واستطاعوا تجنب دفع الضرائب، على حساب القسطنطينية أو الأنظمة المحلية المختلفة الأخرى، ثم أصبحوا مستقلين في مناطقهم الخاصة. ولدعم دويلاتهم الإقطاعية الصغيرة، فإنهم أحكموا سيطرتهم على الأرض والمزارعين وفرضوا عليهم ضرائب باهظة وأعباء مرهقة.

وبالعكس من هذا التوجه نحو الإقطاعية في البلقان، أقام العثمانيون نظاماً مركزياً قوياً، يماثل أنظمة بعض الدول الأوروبية الغربية في القرن الخامس عشر. وخلال هذه العملية المركزية، أعاد العثمانيون لملكية الدولة أو سيطرتها، كامل الأراضي التي كانت في أيدي الزعماء أو العائلات، أو الأديرة المحلية. صحيح أنهم أبقوا جزءاً من هذه الأراضي بيد مالكيها السابقين، إلا أن هؤلاء الزعماء المحليين أصبحوا الآن مالكي تيمار عثمانيين وتحت السيطرة الصارمة للدولة. وللتأكيد، فإن السلاطين العثمانيين قاموا بهذا التغيير لسبب هام، هو أنهم أوجدوا مجموعة عسكرية مركزية قوية؛ فيالق الانكشارية؛ أول جيش متفرغ في أوروبا. وتحت القيادة المباشرة للسلطان، ازداد عدد هذه الفيالق من 1000 سنة 1360 إلى 5000 تحت قيادة بايزيد الأول (1389 - 1402).

إن إعادة تأكيد سيطرة الدولة على الأراضي الزراعية أدى إلى تغييرات ملموسة في حياة مزارعي البلقان. ففي ظل النظام الجديد، ألغيت وببساطة

الكثير من الواجبات الإقطاعية: الضرائب والمكوس، وضع الأفراد والجماعات، وأسماء الأراضي.. كلها أعيد تنظيمها بقوانين صادرة عن الحكومة المركزية وبإسم السلطان. وكان الإشراف وتنفيذ هذه القوانين مسؤولية قضاة وأمراء المقاطعات. وتحققت المركزية الإدارية وبشكلها الكامل ولأول مرة في عهد بايزيد الأول الذي تميزت سياسته بخاصية الاعتماد على العبيد وخدام البلاط الذين دُرِّبوا ليكونوا موالين، وأداة فعالة للإدارة الإمبراطورية.

### الضرائب والرعايا

في ظل النظام العثماني كان الشعب يتكون من مجموعتين أساسيتين: العسكر، الطبقة الإدارية والعسكرية، التي كان أفرادها يقومون بوظائف عامة كممثلين للسلطان وكانت لذلك معفاة رسمياً من كل الضرائب. والمجموعة الثانية، الرعايا، التجار، العمال والفلاحون؛ عملياً مجموعة الناس التي كانت تقوم بأعمال منتجة وتدفع لذلك الضرائب. لقد فرض النظام العثماني الضرائب على الرعايا، ولكن بنسبة أخف وبساطة أكثر من ضرائب النظام البيزنطي - البلقاني السابق. وقد أعفت الدولة أيضاً، من الضرائب الاستثنائية - الأفاريز *avariz*، (في حالات الحرب)، مجموعة معينة من الرعايا، كانوا يقدمون بعض الخدمات الخاصة، مثل حراسة الممرات الجبلية والغابات، أو يساهمون في بعض الموارد الخاصة للبلاط أو للجيش. هذه المجموعات، التي كانت تعرف باسم «مغفى ومسلم» كتعبير عن وضعهم الإعفائي، كانت تشكل طبقة وسطى بين العسكر والرعايا.

كل هذه المجموعات - العسكر، الرعايا، والمتمتعين بالإعفاءات، كانت تسجل في سجلات خاصة على أساس مسح تقوم به الدولة في فترات منتظمة في كل الإمبراطورية. إلا أن هناك درجة معينة من التغير وُجدت بين هذه المجموعات، مما جعل النظام العثماني أقل تشدداً من نظام الطبقات المغلقة الصارم. وفي الواقع، كانت هناك وسائل معترف بها للرعايا، المسيحيين والمسلمين، ليصبحوا عسكرياً. الدفشرمة، ضريبة الغلمان المسيحيين، كانت



واحدة من الوسائل التي مكنت المسيحيين من الانضمام إلى الطبقة العسكرية. وأيضاً، وللتخفيف من آثار فتوحاتهم، ضمّ العثمانيون في الفترة الأولى إلى نظامهم الخاص، بعض المجموعات العسكرية المؤيدة لهم. أما بالنسبة للرعايا المسلمين، فكان من الممكن انضمامهم إلى الجيش بقانون خاص من السلطان إذا حققوا، كمتطوعين على التخوم، أعمال شجاعة مميزة.

ومع ذلك، فالمبدأ العام المعمول به هو أن كل فرد ينبغي أن يبقى في المجموعة التي ينتمي إليها وذلك لحفظ التوازن في الدولة والمجتمع. ويبدو أن منطق النظام العثماني كان قائماً على حقيقة أن الدولة قد قامت من خلال مساعي مجموعة عسكرية محترفة صغيرة، نوع من العُصبة العسكرية التي تجمعت حول قائدها العسكري، الغازي عثمان. وقد حافظت السلالة على هذا الوضع الرئيسي كلبنة أساسية للنظام الاجتماعي - السياسي بأكمله.

وكطبقة تابعة ومنتجة، كان الرعايا من مسلمين ومسيحيين، مجبرين على الخضوع للقيادة العسكرية كما على دفع الضرائب. وكان الحاكم يعتبر، حسب العرف السائد، الراعي الذي يحمي قطيعه، رعاياه، ويقودهم إلى الطريق الصحيح. وقد وجد هذا المفهوم تعبيره العملي بإجراءات الحماية الكثيرة التي حاول السلطان من خلالها إظهار اهتمامه بحالة الرعايا. وكما سنظهر لاحقاً، فإن النظام السياسي بأكمله كان قائماً على هذا المبدأ، وقد سعى السلاطين العثمانيون دائماً إلى إظهار أنفسهم للعامة على أنهم الحامي الأوحد لهم ضد كل أشكال التعسف والظلم.

### تأسيس الإمبراطورية العثمانية في

عهد السلطان محمد الثاني (1451 - 81)

تعود لمحمد الثاني مسؤولية إتمام النظام العثماني المركزي والمطلق في الأناضول والبلقان. فبعد فتح القسطنطينية، شعر محمد الفاتح بأنه قد أصبح أكثر الحكام قوة في العالم الإسلامي، ولذا قام بتحدي الإمبراطوريات الإسلامية في إيران ومصر. واكتسب سلطة عظيمة لا مثيل لها حصرها في

شخصه واستخدمها لخلق نموذج البادشاه العثماني، وهي سلطة ملكية مطلقة في التقاليد القديمة لملوك الفرس وخانات الترك.

مُدعياً بأن فتح العاصمة الإمبراطورية قد خوّله حق إعادة الحدود البعيدة للإمبراطورية الرومانية الشرقية، قام محمد الثاني بسلسلة من الحملات أدت خلال ربع قرن من الزمان إلى ضم صربيا (1459)، والمورة (1459)، والبوسنة والهرسك (1463 - 1464)، وأيوبوا «Euboea» (1470)، وشمالى ألبانيا (1478 - 79) في البلقان، وأراضي الكانداريد Candarids في قسطنطين - سينوب Kastamonu-Sinop (1461) والقرمانيين في وسط الأناضول (1468). وكذلك ضُمَّت الشواطئ الجنوبية للقرم وخضع خانات القرم لسيادة السلطان سنة 1475. بينما فشلت مساعي محمد لاحتلال بلغراد (1456) المدخل لأوروبا الشرقية، وجزيرة رودس (1480) وإيطاليا (1480). وعلى الرغم من ذلك، فإن فتوحاته جعلت من الإمبراطورية العثمانية وحدة أراضي متجانسة بين الدانوب والفرات، مما أحيى مركز سيطرة بايزيد الأول، ولكن على قاعدة ملموسة، وأكثر ثباتاً. وهذا التوسع في الأراضي نفسه، استمر كمركز لأراضي الدولة العثمانية الرئيسية حتى القرن التاسع عشر. ويعود الكثير من الفضل في هذا التوسع السريع للإمبراطورية، للاستخدام الفعال للمدفعية ولزيادة عدد الانكشارية من خمسة إلى عشرة آلاف رجل. ولكن ينبغي أن لا ننقل من أهمية سياسة الاستمالة التي طبقها السلاطين العثمانيون في الأراضي المفتوحة حديثاً.

وفي سبيل إيجاد حلّ لأكثر المسائل أهمية في الإمبراطوريات ما قبل الحديثة، أي ما يتعلق بإقامة مالية مركزية كبيرة بما فيه الكفاية لتمويل السياسات الإمبراطورية، لجأ محمد إلى عدد من الإجراءات المالية المجددة والقاسية؛ كان من جرائها أن صارت سياسته المالية الباعث الرئيس لعدم الرضى الواسع والعنيف أحياناً، والذي ميّز الفترة الأخيرة من عهده.

اسطنبول، العاصمة الجديدة، أصبحت رمز طموحات محمد لإمبراطورية عالمية. وخلال مدة حكمه قام بكل جهد ممكن لتحويل اسطنبول إلى حاضرة

سياسية ودينية، كما كانت في السابق أيام عظماء الأباطرة الرومان. جعل من نفسه قيصرًا وحاكمًا للبرين والبحرين. وبسرعة أعاد إسكان المدينة المهملة والمخربة بإنشاء أحياء من عناصر تركية، ويونانية، وأرمينية ويهودية أحضرت من أجزاء مختلفة من الإمبراطورية. وقد وسّع من اعترافه الرسمي ببطريك الروم في اسطنبول وذلك بإعطائه درجة شرف عالية، وفيما بعد دعا خلفاؤه بطريك الأرمن للإقامة في المدينة. من ناحية ثانية، أعاد تثبيت الامتيازات التجارية للدول الإيطالية البحرية.

ومن أجل إنعاش الازدهار الاقتصادي في اسطنبول، بنى مراكز تجارية - بازارات كبيرة مغطاة في «المدينة القديمة»، وبازارات أصغر في منطقة المرفأ وفي وسط المدينة. وبينما قدر عدد سكان مدينة القسطنطينية قبل الفتح مباشرة بين 30,000 و50,000، ارتفع هذا العدد إلى 14,803 عائلة؛ أي ما يقارب مجموعه أكثر من 70,000 نسمة، في إحصاء أخذ سنة 1478. وقد نمت اسطنبول بسرعة في عهد خلفائه، وبعد مضي قرن على الفتح أصبحت أكبر مدينة في الشرق الأوسط وأوروبا بعدد سكان يصل على الأقل إلى 400,000 نسمة. وكان لنهوض المدن - العواصم العثمانية، بورصة، أدرنة، واسطنبول كمراكز تجارية مكتظة آثاره العميقة على البناء الاقتصادي الجديد في الشرق الأوسط والبلقان. وحتى بعد نهوض اسطنبول، استمرت بورصة المركز التجاري الأساسي للحرير الإيراني المصدّر إلى إيطاليا، ونمت هناك صناعة حرير محلية تؤمن الأقمشة الحريرية المطرزة والمنسوجات الحريرية الأخرى للبلاد العثماني وللأسواق الأخرى في الشرق وأوروبا.

وكنتيجة لردة الفعل العنيفة ضد سياسة الفاتح المالية، فإن حكومة خليفته، بايزيد الثاني (1481 - 1512) اعتمدت المواقف الأكثر توفيقية. فمثلاً، أعادت إلى المالكين السابقين، المؤسسات الوقفية أو لملاكي الأراضي الخاصة، معظم الأراضي التي صودرت ووُزعت كتيمار في عهد محمد الثاني. وشهد عهد بايزيد الثاني الذي نعم بالسلام بشكل عام، وتميز بالكرم، تطوراً داخلياً هاماً. ففي عهد بايزيد بشكل خاص تعزّز وضع اسطنبول كمدينة

اقتصادية قادرة على الاستمرار. وقد سمح التوسع العظيم للمالية المركزية للدولة بتدعيم الجيش والبحرية، وزيادة عدد الانكشارية المجهزين ببنادق، وبناء أسطول حربي كبير لم يشهد البحر الأبيض المتوسط مثيلاً له من قبل، وكان ذلك بإشراف ومساعدة المهندسين الجنوبيين.

### القوة البحرية العثمانية والإمبريالية

وعلى طريق تقاليد الغزاة البحرين وقراصنة غربي الأناضول، والتي تعود إلى أوائل القرن الرابع عشر، فإن البحرية العثمانية في عهد بايزيد الأول تحدّت البنادقة من مركزها المحصن في غاليبولي. ولاحقاً، في عهد محمد الثاني، لعبت البحرية دوراً هاماً في تحقيق السيطرة العثمانية على البحر الأسود وبحر إيجه، وساهمت في أعمال عسكرية ضد المماليك (1485 - 91) بمهاجمتها للسواحل السورية. إلا أن الأهم من ذلك كله، كان التحدي العثماني الفعّال للبنادقة في البحر المفتوح في حرب البندقية (1499 - 1503).

المؤرخ المعاصر، ابن كمال، ركّز على أن العثمانيين قد تخطوا في القوة كل السلطنات الإسلامية السابقة لأنهم ومن بين أشياء أخرى كثيرة، حولوا دولتهم إلى قوة بحرية عظيمة في البحر الأبيض المتوسط. وفي الحقيقة، وخلال الفترة الأولى لصعود البحرية العثمانية، فإن الغزاة البحرين الأتراك قد ظهوروا في غربي المتوسط لمساعدة المسلمين الأسبان الذين استنجدوا ببايزيد الثاني. وكان المماليك أيضاً قد طلبوا مواد وخبرات عثمانية لإعادة بناء بحريتهم في السويس بعد خسارتهم على يد البرتغاليين سنة 1509.

إن نهوض القوة البحرية العثمانية في البحر الأبيض المتوسط كانت له نتائج عظيمة ليس فقط على صعيد توسع الحكم العثماني إلى الأراضي العربية من سوريا إلى مصر والمغرب، وإنما أيضاً بطردهم للبرتغاليين من البحر الأحمر. ولذا، وبمعكس المعتقدات الشائعة، فإن العمل التأسيسي للنهوض العظيم للعثمانيين كقوة عالمية في عهد سليم الأول (1512 - 1520) وسليمان (1520 - 66)، كان قد بدأ في عهد بايزيد الثاني.

## الخلافة

حتى عهد السلطان محمد الثاني كان هناك نوع من التضامن تمت المحافظة عليه بين العثمانيين والمماليك في وجه الغرب الصليبي والخطر التيموري من الشرق. وظهرت المنافسة للمرة الأولى حول مسألة السيادة على الإمارات التركمانية في مناطق الحدود: القرمانيين، وذو القادر ولاحقاً الرمضانيين.

قبل التحدي العثماني اعتبر المماليك القوة الإسلامية السنية الأولى لأنهم تغلبوا على المغول، وأصبحوا حماة الحرمين الشريفين في مكة والمدينة واحتفظوا أيضاً بالمتحدرين من الخلفاء العباسيين في القاهرة. وبحذر شديد ميّز العثمانيون في دعايتهم بين العرب و«المماليك المضطهدين» تحت زعامة السلطان النشيط سليم الأول (1512 - 1520)، وقرروا إنهاء الحكم المملوكي للأراضي العربية.

وتمكن العثمانيون وبسرعة من إقامة حكمهم في سوريا ومصر بعد انتصار سليم الأول على المماليك في مرج دابق 24 آب، 1516، وفي الريدانية 22 كانون الثاني (يناير)، 1517. وعجّل شريف مكة في تلك اللحظة وتحت خطر الغزو البرتغالي، في الاعتراف بسيادة سليم على الحجاز.

هناك أسطورة، اختلقت على ما يبدو في القرن الثامن عشر، تُخبرنا بأن المتوكل، أحد المتحدرين من الأسرة العباسية، تنازل عن حقوقه كخليفة إلى سليم الأول في احتفال رسمي. في الحقيقة، كان سليم سعيداً في ذلك الوقت بحصوله على لقب حامي [الحرمين] مكة والمدينة. على الرغم من أن سليمان الأول كان قد عرّف عن نفسه باعتباره «خليفة كل المسلمين في العالم»، وما عناه بذلك كان تركيزاً على دوره كحامي للعالم الإسلامي. ولذا فإن المفهوم العثماني الجديد للخليفة كان في الواقع توسيعاً للمفهوم العثماني الأساسي لقيادة الحرب المقدسة (الجهاد) وبخط متوازٍ مع سياسته للزعامة العالمية، حاول سليمان أن يُبرز دوره كحامي للمسلمين في كل أنحاء العالم.

ففي سنة 1538 أرسل أسطولاً لطرد البرتغاليين من منطقة ديو في الهند. وبناءً على طلب سلطان أتجه في سومطرة، أرسل مساعدات تقنية، وخطط لإرسال بعثة لطرد الموسكوبيين من الفولغا الأدنى لفتح طرق التجارة والحج للمسلمين في آسيا الوسطى.

ولكن بعد القرن السابع عشر، لم تعد للسلطين العثمانيين المقدرة على عرض قوتهم من أجل المسلمين. وبدلاً من ذلك، صاروا يركزون وبشكل متزايد على حقوقهم الشرعية كخلفاء، بالعودة إلى تعاريف الخلافة التي كوّنتها السلطات الدينية في القرن العاشر. هذا التركيز على الشرعية سيؤدي، في القرن التاسع عشر، إلى حركة الجامعة الإسلامية في عهد عبد الحميد الثاني (1876 - 1909).

إن الفكرة التقليدية للغزو، الجهاد ضد المشركين، أعيدت صياغتها من قبل العثمانيين في القرنين الخامس عشر والسادس عشر لدعم التوسع العثماني في الشرق، على حساب جيرانهم المسلمين. فعندما قرر العثمانيون اتخاذ موقف ضد منافسيهم المسلمين - سلالات الأناضول، ثم الأق قوينلو، وأخيراً الصفويين في إيران - اتهموهم بإعاقة العثمانيين عن القيام بواجبهم الأساسي، الحرب المقدسة ضد المسيحية الغربية. ووجد العثمانيون مبررات إضافية ضد الشيعة الصفويين عندما أعطى العلماء العثمانيون موافقتهم للحرب ضد المبتدعة.

### العثمانيون والغرب

إن الدولة العسكرية الأوتوقراطية للعثمانيين قد قدمت الأداة التي تمكن بواسطتها العالم الإسلامي أولاً من مقاومة ثم مهاجمة الغرب. وبدأ الصراع وبشكل واسع عندما شنَّ العثمانيون، مستفيدين من الانقسامات الناشئة عن ظهور البروتستانتية والملكيات القومية في أوروبا، سلسلة من الهجمات المتناسكة ضد آل هابسبورغ في وسط أوروبا والبحر الأبيض المتوسط. ونتج عن ذلك احتلال هنغاريا (1526 - 41)، والحصار الأول لفينا سنة 1529،

والانتصار البحري في برفيتزا Preveza سنة 1538. وخلال فترة 1528 - 78، اتبع العثمانيون دبلوماسية فعالة في أوروبا، ففي كل الأماكن دعموا القوى المعارضة للبابوية ولآل هابسبورغ، مثل الكالفنيين في فرنسا، وهنغاريا والأراضي المنخفضة «Netherlands»، والموريسكوز «Moriscos» في إسبانيا والملكيات القومية الناشئة في فرنسا وإنكلترا. وبالإضافة إلى الحملات العسكرية المتتابة، عبّر العثمانيون عن دعمهم بإعطاء امتيازات تجارية للدول الصديقة (فرنسا سنة 1569، إنكلترا سنة 1580، والأراضي المنخفضة سنة 1612). وعلى المدى الطويل، فإن هذه الامتيازات التجارية قد أعطت دفعا قويا لاقتصاديات الدول الغربية المدعومة من قبل العثمانيين.

الدعامة الأخرى للدبلوماسية العثمانية في ذلك الوقت كانت تجنب الحرب على جبهتين. وبشكل خاص، فإن الإمبراطورية أرادت أن تتجنب حرباً مع إيران عندما تكون منخرطة في حرب مع أوروبا الغربية. وقد أعاق تحقيق هذا الهدف عام 1603 إعلان الشاه عباس (1588 - 1629) الحرب واستعادة كل ما فتحه العثمانيون في أذربيجان عندما كان العثمانيون منهمكين في حرب طويلة ومدمرة مع الهابسبورغ (1593 - 1606). ومعاهدة تسترزا - توروك «Zistva-Török» مع آل هابسبورغ سنة 1606 نُظر إليها بصواب كنقيض للمد العثماني وبداية للانحطاط. وكان من جملة ما عناه الفشل العثماني هو أن الثقافة الآسيوية التقليدية، وحتى عندما تقتبس تكنولوجيا عسكرية من الغرب، محكوم عليها بالإخفاق أمام قيام أوروبا الحديثة. ومن الملاحظ أن الانحطاط العثماني كما كان نتيجة النظام الاقتصادي الحديث لأوروبا الغربية، كان كذلك نتيجة تفوق التكنولوجيا العسكرية الأوروبية. النظام الاقتصادي والنقدي العثماني انهار في القرن السابع عشر بسبب الاقتصاديات الماركنتلية العدوانية للدول الأوروبية التي حلّت محل البنادقة في المشرق.

### زمن الأزمات في نهاية القرن السادس عشر - الانحطاط

من العوامل التي مهّدت الطريق لأزمات أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر يمكن أن نذكر أثر الازدياد السكاني، والتكنولوجيا

العسكرية الأوروبية الجديدة، والأزمة المالية والنقدية.

انتشر العنف في الأناضول في أواسط القرن السادس عشر، وخاصة خلال فترات نزاع الأمراء مصطفى وبايزيد. آلاف المزارعين الأناضوليين العاطلين عن العمل انضموا إلى الأمراء المتنازعين كمرتزقة أملاً في الوصول إلى مرتبة الطبقة العسكرية تحت راية أميرهم المنتصر. الفرسان السباهية الذين خسروا تيماراتهم، أو الذين أضحت تيماراتهم غير ذات قيمة، شكلوا واحداً من العناصر الرئيسية للفوضى. إضافة إلى أن الآلاف من المزارعين الشباب، الساعين إلى المشاركة في امتيازات الطبقة الدينية، ملأوا المعاهد في مدن الأناضول، إلا أنهم كرسوا نشاطهم لسلب ونهب هذه المدن والقرى المجاورة لها. وساعد البلقان على استيعاب جزء كبير من سكان الأناضول عندما أمنت مناطق التخوم للشباب المعتقد مهنة عسكرية فرصة واضحة لإبراز بسالتهم كمتطوعين «gönüllüs»، إلا أن التوسع العثماني في أوروبا وصل إلى مرحلة الجمود في النصف الثاني من القرن السادس عشر وانهارت تنظيمات المغيرين على التخوم akincis.

أما في الأناضول، وفي نفس الوقت، فإن الضغط السكاني في سهول الأناضول القاحلة كان مستمراً. وقد دُرِسَ هذا الضغط على قاعدة المسح العثماني للشعوب، إلا أن مداه الدقيق لا يمكن حسابه.

بعد 1578، دفعت الحروب مع إيران العديد من الشباب للانخراط في الجيش. وبمعنى ما فإن الحروب مع إيران والنمسا في نهاية القرن السادس عشر كانت جزئياً نتيجة النمو السكاني، لأنها حركت ضغوطات متنوعة اجتماعية سياسية ومالية داخل الإمبراطورية.

وفي المناطق الواسعة المفتوحة في القوقاز، عمل الآلاف من رعايا الأناضول في التيمار أو حراساً للقلاع. ولكن - وهذا ما يشجبه الملاحظون للانحطاط العثماني بشدة - هذا التغيير عَرَّضَ لخطر نهائي المبدأ الموجه للنظام العثماني، وهو المبدأ القائم على الفصل بين الرعايا والجيش.



وبالنسبة للأسباب الأخرى للانحطاط، فإن الكتاب العثمانيين في تلك الفترة ركزوا على ضعف استقلالية الديوان الإمبراطوري ومكاتبه، وخاصة مع قيام المعركة التي أعلنت ضد الصدر الأعظم سوكللو Sokullu من قبل مراكز نفوذ وصلت حديثاً إلى اسطنبول مع ارتقاء سليم الثاني للعرش (1566). إن الاستقلالية التقليدية للإدارة، والتي هي في الظروف الأفضل الضمان لمصالح الدولة، تقلصت من قبل نزلاء البلاط وأشخاص آخرين غير مسؤولين. وبذلك بدأ الفساد والانحلال في القوانين والأنظمة الأساسية للإمبراطورية، وواحد من أهم النتائج المؤثرة كان التحوّل وعلى مدى واسع للميري (أراضي الدولة) من سيطرة الدولة إلى وضعية ملك (أراضي ملكية خاصة) والوقف (مؤسسات دينية). وفي هذا الوقت أيضاً فإن الطبقة الدينية، العلماء، اعتادت على التدخل أكثر فأكثر في الإدارة وفي القوانين الصادرة عن السلطان. المسائل المتعلقة بالقوانين السلطانية والتنظيمات الإدارية أصبحت وبشكل متزايد موضوعات للفتوى، الرأي الرسمي لشيخ الإسلام، رئيس العلماء، بالاتفاق مع السلطات الدينية. هذا النفوذ لرجال الدين عزّز روح المحافظة السنية فقلّصت وعلى نحو خطير حرية عمل الحكومة في الاستجابة للظروف المتغيرة.

الكتاب العثمانيون في تلك الفترة، أرجعوا، الانحطاط إلى فساد المؤسسات الذي بلغ ذروته في عهد سليمان القانوني. بدون شك هناك بعض الحقيقة في كل هذا، والمؤرخون المحدثون بالإجمال يوافقون على هذا الرأي. إلا أن الكتاب العثمانيين فشلوا في تبيان كل الأسباب المساهمة، كما فشلوا في تقدير التغييرات الفعلية الهامة التي كانت تحدث في زمانهم.

تطرقنا سابقاً إلى مشكلة التزايد السكاني وأوضحنا صعوبة تحديد نتائجها بوضوح. وننتقل الآن إلى دراسة النظم العسكرية والمالية، المرتبطة مباشرة بموضوعنا.

الحروب مع إيران التي ابتدأت منذ 1578 واستمرت بتقطع حتى سنة 1639 ينبغي النظر إليها كأحد الأسباب الرئيسية لانحطاط الإمبراطورية العثمانية. إن غزو واحتلال أذربيجان وشروان في السنوات 1578 - 90 كان

مدمراً جداً، ليس فقط للبناء العسكري التركي وإنما أيضاً للمالية العثمانية. فالجنود الذين أقاموا في تلك الأراضي بشكل ثابت كان ينبغي إعادة تموينهم من الأناضول. ثم كان الهجوم الإيراني المضاد في سنة 1603، الذي رمى الجنود العثمانيين المقيمين هناك برمتهم إلى الأناضول.

وخلال الحروب ضد النمسا منذ سنة 1593 إلى 1606، واشتداد الحاجة لإرسال وحدات مُشاة مجهزة بأسلحة نارية إلى ساحة المعركة، أحدث زيادة هامة في عدد الانكشارية (7,886 سنة 1527 و37,627 سنة 1610). وفي الأناضول، جرى تسجيل أعداد كبيرة من المرتزقة السكبان (Sekban) (أكثرهم من أصول فلاحية) - وجميعهم مجهزون بأسلحة نارية. وخلال فترات السلام، وعند انتهاء الحاجة إلى خدماتهم، جاب هؤلاء المرتزقة، العاطلون عن العمل وبدون مداخيل، المناطق الريفية منتزعين الإتاوة من شعوب الأناضول. أما الفرسان السباهيون، الذين انتزعت منهم تيماراتهم، أو لم يعد مدخول تيماراتهم كافياً لمعيشتهم، فقد كانوا من بين المنضمين إلى هذه المجموعات المسلحة. وهذه المجموعات من العصابات عرفت بالجلالي Celali وأرهبت المناطق الريفية إلى درجة أنهم كانوا السبب الرئيسي للنزوح السكاني من الريف ودمار الزراعة الأناضولية. ونتيجة لذلك أصيبت الدولة بشلل تام في وقت صعد فيه الإيرانيون هجماتهم المضادة بين سنوات 1603 و1610. وفي نفس الوقت تعرضت مقدونيا وشمال بلغاريا إلى فوضى مماثلة واحتلت العصابات المسيحية جزءاً هاماً منها.

وقد أعاد هذا السيناريو نفسه أكثر من مرة خلال حروب القرن السابع عشر، ولكن وبخاصة بين سنوات 1683 و1699. هكذا لم يعد بإمكان العثمانيين إنجاز عملهم في أوقات الحرب دون مساعدة السكبان والمجموعات الأخرى المختلفة التي يطلق عليها اسم المرتزقة المسلمين. ولتدفع لهم، وللأعداد المتضخمة من الانكشارية أيضاً، كان على المالية المركزية أن تبحث عن مصادر دخل جديدة. وحقيقة أن الدولة العثمانية كانت ملزمة منذ معركة ليبانتو Lepanto بالمحافظة على أسطول قوي في البحر

الأبيض المتوسط لموازنة أسطول الحلفاء، زاد من أعبائها المالية.

بعد سنة 1590 عانت المالية من عجز كبير. وفي نفس الفترة فإن زيادة الـ «avariz» (ضرائب الطوارئ) والجزية (ضريبة الرأس على غير المسلمين) والتجاوزات التي اقترفت خلال جبايتهما زادت من عدم ارتياح الرعايا. وأصبحت الـ avariz ضريبة تدفع نقداً على قاعدة سنوية منظمة، واستمرت نسبتها بالازدياد مع مرور الوقت (40 أسبرز سنة 1582، 240 سنة 1600، و535 سنة 1681). أما الجزية التي كانت قيمتها 40 أسبرز للشخص سنة 1574، فقد ارتفعت إلى 70 سنة 1592، و150 سنة 1596، و240 سنة 1630، و280 سنة 1691.

أما العامل الذي كانت له آثار تدميرية على الاستقرار المالي العثماني فكان انخفاض سعر النقود الفضية، والسبب الرئيسي لذلك كان تدفق الفضة الرخيصة من أوروبا بعد سنة 1580. الأسواق العثمانية فاضت بالفضة الأوروبية والعملة المزورة. ولأن الضرائب والأعباء المرتبطة بالتيمار لم ترتفع، فإن قيمتها الاسمية بقيت دون تغيير رغم أن قيمتها الفعلية هبطت وبكثافة. وليس بالمستغرب والحال هذه، أن يحاول السباهيون ومالكو التيمار الآخرون التعويض عن خسارتهم في مداخيلهم بابتداع ضرائب جديدة أو بالمطالبة بنسب أعلى من الضرائب القديمة من الرعايا المضغوطين بقوة. إن الانتفاضات المتعددة للانكشارية خلال هذا الوقت ارتبطت مباشرة بالانخفاض الفعلي لمداخيلهم وعدم الاستقرار النقدي.

وكنتيجة لهذه الثورات، لم تعد الإمبراطورية العثمانية في القرن السابع عشر تلك الإمبراطورية الحيوية التي كانت في القرن السادس عشر. إن نظام التيمار، الذي ولد في ظروف خاصة بالعصور الوسطى، قد تحطم بشكل لا يمكن إصلاحه. وقد استبدل به جيش مجهز بالبنادق من المرتزقة وبمالية مركزية تحولت نحو الضرائب المدفوعة نقداً. واستُبدل بالعملة العثمانية النقد الأوروبي، ودخل الاقتصاد في مجال المركنتاليات الأوروبية «European mercantilists».

## سكان الإمبراطورية وحركات السكان

### السكان

الإحصاءات الأكثر مصداقية حول السكان العثمانيين في القرن الخامس عشر أتت من كشوفات الضرائب والجزية، وسجلات ضريبة الرأس<sup>(1)</sup>. وبالنسبة لغير المسلمين فإن سجلات ضريبة الرأس من السنوات الهجرية 893 إلى 896 (17 كانون الأول 1487 إلى 5 تشرين الأول 1491) تُعطي المعلومات في الجدول I: 1، ومجموع عائدات الجزية لسنة 1489 هو 32,407,330 أقجه Akça لكل المجموعات. وتتضمن هذه الإحصائيات العائلات hanes أو الأرامل اللواتي ورثن أراضي أزواجهن. وهان Hane لا تعني كل الأشخاص الذين يعيشون تحت سقف واحد وإنما كل زوج وزوجة مع مصدر دخل مستقل. ولذا، فإن الابن المتزوج الذي يعيش مع أهله مع مصدر دخل مستقل يشكل هاناً واحداً. كما أنزلاء المنزل «Household» يشكلون عائلة مستقلة اقتصادياً.

الجدول رقم I: ضريبة الرأس المدفوعة من قبل السكان غير المسلمين، 1488 - 1491

العائلات			
1488	1489	1490	1491
639,119	646,550	621,508	639,387
19,079	35,905		34,970
عائلات البلقان التي تدفع الجزية بانتظام			
المجموعات الخاضعة إلى نسبة جزية مخفّضة (مناطق الأفلاق وعمال المناجم في البوسنة والصرب وسالونيك)			
658,198	681,452		674,357
-	-	32,628	-
المجموع			
الأناضول			

المصدر: Barkan (1964)

(1) Barkan, Ö. L. (1964). «894 (1488/1489) Yili Cizye Tahsilatına Ait Muhasebe Bilançoları», BL, I, 1-117.

وعلى الرغم من ذلك فإنه من غير الممكن على قاعدة هذه الإحصائيات التحديد ولو على وجه التقريب لمجموع السكان غير المسلمين لهذه الفترة. فغير المسلمين الخاضعين لضريبة الرأس كانوا من الذكور البالغين الذين تتراوح أعمارهم بين أكثر من 12 أو 15 سنة والقادرين على إعالة أنفسهم من خلال نشاطات اقتصادية. إلا أنه في المناطق الريفية بشكل عام فإن رب العائلة الفلاحية كان مسؤولاً عن كل الأشخاص الذين تتوجب عليهم الجزية ويدفع جزية واحدة عن العائلة. وكذلك فإن هذه التقارير حول ضريبة الرأس لم تتضمن غير المسلمين المعفيين من هذه الضريبة، مثل رجال الدين، العبيد، المُعَدِّمين، حاشية الأشخاص العسكريين وأحياناً أعضاء الميليشيات المسيحية.

وفي زمن هذا المسح الإحصائي فإن الأراضي العثمانية تضمنت الأراضي البلقانية شمالي نهر الدانوب وسافا Sava، باستثناء شمالي البوسنة وكرواتيا اللتين كانتا بأيدي الهنغاربيين، ودلماتيا Dalmatia، في أيدي البنادقة، إضافة إلى أنها كانت تتضمن بعض القلاع والجزر في اليونان و(مجموعة جزر أرخبيل) بحر إيجه<sup>(1)</sup>. ومجموع العائلات غير الإسلامية المسجلة الخاضعة لضريبة الرأس بلغت حوالي 674,000 في البلقان وحوالي 32,000 في الأناضول سنة 1491. وإذا افترضنا مع بركان Barkan أن السكان المعفيين يشكلون نسبة 6 بالمائة من مجموع السكان مع معدل وسطي 5 أشخاص للعائلة الواحدة، فيكون مجموع السكان غير المسلمين في البلقان العثماني حوالي الأربع ملايين في التسعينات من القرن الخامس عشر.

أما بالنسبة للأناضول، فإن الأراضي العثمانية سنة 1490 كان يحدها خط من طرابزون إلى خليج أنطاليا تقريباً، بدون مناطق شرقي آسيا الصغرى. في هذه المنطقة، التي يبلغ مجموع عدد العائلات المسيحية فيها 27,131، فإن منطقة طرابزون - رايز Trabzon-Rize والتي خرجت من أيدي الـ Comneni سنة 1461، فإنها المنطقة الوحيدة التي كانت تكتظ بالسكان المسيحيين سنة

Pitcher, D.E. (1972). al historical geography of the Ottoman Empire, Leiden XVI. (1)

1490<sup>(1)</sup>. وبالعكس، فإن مناطق غربي الأناضول، والتي فُتحت من قبل التركمانيين في مرحلة سابقة، في أوائل القرن الثالث عشر، فإن عدد السكان غير المسلمين الخاضعين لضريبة الرأس كان 2,605 عائلة فقط، أما في أنحاء الأناضول الأخرى فوصل العدد إلى 2,856 (راجع الجدول 2: 1) معظمهم كانوا من اليونانيين والأرمن مع بعض المجموعات اليهودية الصغيرة في المدن.

الجدول رقم 2: I: السكان غير المسلمين في الأناضول 1489

العائلات			
	hane	Bive	
Saruhan	480	94	معظمهم يونانيون
Aydin	570	172	
Mentese	168	51	
Teke	236	33	
Hamid	491	112	
Germiyan	167	31	
Ankara	628	46	معظمهم أرمن
Kiangiri (Çankiri)	504	34	
Kastamony-Sinop	1,253	282	معظمهم يونانيون
Bigacik	9	-	
المجموع	4,606	855	

المصدر: Barkan (1964)

وفي الفترة بين 1520 - 35، فإن عدد العائلات المسيحية الخاضعة للضريبة في مقاطعات الأناضول الخمس وصل إلى 63,300 أو 7 بالمائة من مجموع السكان، بينما كان سابقاً 32,000 حوالي سنة 1490. وهذه الزيادة ربما كانت نتيجة النمو السكاني والذي شكل الاتجاه العام للفترة بين 1490 - 1535، أو عدم دقة السجلات، أو من الهجرة من الشرق. المجموع العام

(1) Lowry, H. W. (1981). Trabzon Sehrinin Islamlasma ve Türklesmesi, 1461-1583, (1) Istanbul.

للبلقانيين المتحولين إلى الإسلام بلغ 94 عائلة في السنة الهجرية 893، و255 في سنوات 893 - 96<sup>(1)</sup>. الغلمان المسيحيون الذين جمعوا لفيالق الانكشارية أو لخدمة البلاط والذين سينضمون لاحقاً إلى طبقة العسكر بعد التدريب لم يُتضمنوا في هذه الإحصائيات<sup>(2)</sup>. في الفترة 1520 - 35 كان في الأناضول 271 عائلة يهودية فقط تدفع الضريبة؛ وفي مقاطعة ديار بكر 288.

وبتعبير آخر، مع نهاية القرن الخامس عشر كانت الأناضول وحتى غرب الفرات بلداً مسلماً بأكثريتها؛ مسكونة بالأتراك المسلمين المهاجرين، أو بالسكان الأصليين المتحولين. ومما لا شك فيه أن عملية أسلمة واسعة النطاق قد حدثت. وكان ذلك نتيجة عملية ثقافية - اجتماعية خلال القرون الثلاثة للحكم السلجوقي التركي<sup>(3)</sup>. وإذا أردنا أن نحكم من خلال السكان العثمانيين وسجلات الضرائب للنصف الثاني من القرن الخامس عشر، فإننا نرى غرب الأناضول عندها مسكوناً بالتركمانيين<sup>(4)</sup>.

ولا توجد عندنا أية أرقام عن السكان المسلمين في الأناضول قبل السنوات 1520 - 35. ففي هذه الفترة، واعتماداً على حسابات بركان Barkan، فإن العائلات الإسلامية الخاضعة للضريبة لنفس المنطقة سنة 1490

Barkan (1964), p. 13. (1)

Inalcik H. (1965), «Ghulam», EP, II, pp. 1085-91. (2)

Turan, O, (1959). «L'Islamisation dans la Turquie du Moyen Age». SI, x; Vryonis, S. (3)

(1971). The decline of medieval Hellensim in Asia Minor and the process of Islamization from the eleventh through the fifteenth century, Berkeley, Los Angeles and London. pp.

351-402; cahen. C. (1988). La Turquie pre-Ottomane, Istanbul and Paris. Expanted French ed. of Pre-Ottoman Turkey, trans. by J. Jones-Williams, London (1968). pp.

162-75, 321-23; Inalcik (1970c). «Islam in the Ottoman Empire», Cultura Turica, V-VII, 19-29.

Inalcik, H. (1986a). «The Yürüks, their origins, expansion and economic role», in R. (4)

Pinner and W. Denny, eds., Oriental carpet and textile studies, London, pp. 39-65, p. 47.

بلغت 832,395<sup>(1)</sup>. وأضيفت إلى هذه الإحصائيات العائلات العسكرية المعفاة من الضريبة والتي شكلت مجموعة صغيرة تعيش بأكثريتها في المدن. ومن خلال نفس الإحصائيات، فإن النمو السكاني في المقاطعات الآسيوية الخمس يظهر في الجدول 3: 1<sup>(2)</sup>.

الجدول رقم 3: I: النمو السكاني في الأناضول

	العائلات		
	1520 - 30	1570 - 80	النمو %
Anatolia (Western Asia Minor)	474,447	672,512	41,7
Karaman (Central Asia Minor)	146,644	268,028	82,8
Zülkadriye (Kirsehir-Maras area)	69,481	113,028	62,6
Rum-i Kadim (Amasya-Tokat area)	106,062	189,643	79,0
Rumi-i Hadis (Trabzon-Malatya area)	75,976	117,263	54,0
المجموع	872,610	1,360,474	

المصدر: Barkan (1970), p. 169.

وبحلول عام 1580، فإن عدد سكان المقاطعات الخمس كان 6,802,370 في مقابل 4,636,050 حوالي سنة 1490 (عدد العائلات مضروبة بخمسة)؛ وتتراوح نسبة النمو هنا من 41 إلى 82 بالمائة بحسب الأوضاع الخاصة لكل منطقة.

وفي الواقع، فإنّ العائلات في المدن تألفت من 3 إلى 4 أفراد وكانت أصغر من مثيلاتها في المناطق الريفية<sup>(3)</sup>. وقد نوقشت فرضية بركان (كل عائلة

(1) Barkan, (1957). «Essai sur les données statistiques des registres de recensement dans l'empire Ottoman au XVe et XVIe siècles», JESHO, I. p. 20.

(2) Barkan, (1970). «Research on the Ottoman fiscal surveys», in Cook, ed., 1970, 163-71. p. 169.

(3) Inalcik, (1978a). «The impact of the Annales School on Ottoman studies and new findings», R, I(3/4), 69-96. pp. 79-80; Göyünç, No. (1979)». «Hane' Deyimi Hakkında», TD, XXXII, 331-48.



مضروبة بخمسة) من قبل ل. أردير L. Erder<sup>(1)</sup>، على ضوء نظرية الديموغرافيا الحديثة. فقد أوضح أردير، أن العائلة العثمانية قد استخدمت في أكثر الأحيان للتسهيلات المالية وليست ثابتة جغرافياً. فلو أخذنا إحصائيات السكان الذكور البالغين في بعض نماذج سجلات السكان والضرائب العثمانية، واستخدمنا نظرية العلاقة بين نسب النمو السكاني وتقسيمات الأعمار المتغيرة للسكان، لوجدنا - يقول أردير - بأن كل المضاعفات تتحدد بمدى ضيق نسبياً يتراوح بين 3 أو 4، وفي كل الأحوال، يرى بركان أن الإمبراطورية العثمانية شاركت دول غربي البحر الأبيض المتوسط المسيحية بالنمو السكاني المذهل الذي بلغت معدلات زيادته 59,9 بالمائة في فترة 1520 - 80، والتي رآها بروديل منطقة<sup>(2)</sup>.

الزيادة، أضاف بركان، وصلت إلى حد 83,6 بالمائة في المدن الكبرى. وبناءً على زيادة عدد العائلات، فإن النتيجة يجب أن تكون موثوقة ما عدا احتمال بعض التعارضات في الإحصائيات بسبب عدم دقة الإحصائيات المتتالية. وبكل الأحوال، فإن معدل العائلة لا يمكن أن يكون أقل من شخصين، مما يعطي عدد سكان 1,664,790. وكلما أضفنا شخصاً للعائلة فإن الفرق سيكون حوالي 800,000 نسمة أكثر. ولذا، فإن حسابات السكان على قاعدة العائلات التي تدفع الضرائب هي افتراضية. ولكننا أكثر ثقة بحساباتنا للزيادة السكانية لأن مصادرها تستخدم العائلة Hane في كل الأوقات. ومع قدوم عام 1535، فإن سوريا وفلسطين، وكذلك مقاطعتا ديار بكر (جنوبي شرقي آسيا الصغرى) وذو القادر قد ضمتا إلى الأراضي العثمانية. وفي عام 1535، فإن العدد الإجمالي للعائلات المسلمة التي تدفع الضريبة في المقاطعات الآسيوية، بما فيها كيليكيا Cilicia والمقاطعات العربية في سوريا

(1) Erder, L. (1975). «The measurement of preindustrial population changes: the Ottoman Empire from the 15th to the 17th century», MES. pp. 284-301.

(2) Braudel, F. (1972 and 1973). The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II, trans. by S. Reynolds, I-II, New York. I, p. 398.

وفلسطين وأفراد القوة العسكرية، بلغ 1,067,355 عائلة أو حوالي 5,300,000 شخص إذا استخدمنا نفس المضاعف بخمسة. وعند إضافة المسيحيين واليهود فإن عدد العائلات يصل إلى 1,146,697 والعدد الإجمالي إلى 5,733,485.

وبالإجمال فإن بركان يقترح<sup>(1)</sup> للفترة بين 1520 - 35، عدد سكان يتراوح بين 12 و12,5 مليون في الإمبراطورية العثمانية بما فيه السكان الذين لم يذكروا في سجلات الضرائب في البلقان وآسيا الصغرى. ويقترح بروديل حداً أقصى من 22 مليون لأقصى مدى للإمبراطورية في نهاية القرن السادس عشر. إلا أن بركان يظن أنه في نهاية القرن<sup>(2)</sup> كان عدد السكان أكثر بكثير ويتراوح بين 30 - 35 مليون؛ بناءً على تقدير نسبة النمو الطبيعي بـ 60 بالمائة وإضافة سكان المناطق التي ضُمت بعد سنة 1535 (سيرميا Syrmia، كرواتيا، هنغاريا، وسلوفاكيا في أوروبا؛ شمال إثيوبيا، الحجاز، اليمن، العراق، الأحساء، وشواطئ أفريقيا الشمالية)<sup>(3)</sup>. وبالتأكيد فإن إحصائيات بركان مبالغ فيها<sup>(4)</sup>. وفي حساباتنا ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار الظروف الخاصة للفتوحات العثمانية. بشكل عام، هناك تراجع في الازدهار وعدد السكان في الأراضي الجديدة المفتوحة من قبل العثمانيين كما هو موثق في سوريا، وجنوب شرق آسيا الصغرى<sup>(5)</sup> وهنغاريا<sup>(6)</sup>. ولكن عند ثبات الحكم العثماني وعودة النظام والأمن، عاد التحسن والتطور وازداد السكان (الجدول 4: I).

(1) Barkan (1957), p. 23.

(2) Braudel (1972), I, p. 396.

(3) Pitcher (1972). XXI

(4) Inalçik (1978a), p. 75; Braudel (1972), I, p. 398.

(5) Barkan (1957), p. 25; Cohen, A. And B. Lewis (1978). Population and revenue in the towns of Palestine in the sixteenth century, Princeton, pp. 19-41.

(6) Káldy - Nagy, G. (1960). «Bevölkerungs-statistischer Quellenwert der Gizye-Defter und der Tahrir-Defter», Aor, II, 259-67.

الجدول رقم 4: I: تزايد السكان في لواء (مقاطعة فرعية) من دمشق

السنة	عدد القرى	عدد العائلات المسلمة الخاضعة للضريبة	الدخل السنوي بملايين الآقجة
1521	844	38,672	12,6
1548	1016	63,035	13,6
1569	1,129	57,897	15,8

المصدر: Barkan (1957)

## الضغط السكاني

إن الهجرة المتزايدة للبندو التركمان إلى منطقة التخوم في غربي الأناضول كانت واحداً من الأسباب الرئيسية لاندفاع الأتراك باتجاه الغرب في الفترة الواقعة بين سنوات 1260 - 1400. وفقد هذا الضغط السكاني بسبب التقلص الاقتصادي وازدياد الفقر، كنتيجة لزيادة التعارض بين نسب السكان والموارد الاقتصادية<sup>(1)</sup>، كما اعتبرها العديد من الدارسين العثمانيين موضوعاً أساسياً لتفسير الأزمات والتغيرات البنيوية التي مرت فيها الإمبراطورية العثمانية في الفترة بين 1580 و1620<sup>(2)</sup>. عدة دلالات استخدمت لتحديد ما إذا كان قد حدث ضغط سكاني أم لا في تلك الفترة.

ومن أجل فحص فرضية الضغط السكاني خلال القرن السادس عشر في الأناضول، درس مايكل كوك «Michael Cook» المُعطيات الديموغرافية والاقتصادية من الإحصائيات العثمانية<sup>(3)</sup>. الدراسات السابقة (وخاصة دراسات أكديج Akdag، بروديل Braudel وكوجر Güçer) اعتمدت على الانخفاض في

(1) Issawi, C. (1958). «Comment on Professor Barkan's estimate of the population of the Ottoman Empire», JESHO, I, 329-31.

(2) Braudel (1972), I. pp. 593-94; İnalcık (1978a), pp. 80-83; cook, M.A. (1972). Population pressure in rural Anatolia, 1450-1600, London.

Cook (1972).

(3)

تصدير القمح، ارتفاع الأسعار، نقص المواد والمجاعات في الإمبراطورية كمؤشرات أساسية للضغط السكاني. درس كوك المسألة بالبحث عن نسبة السكان للموارد الاقتصادية وما إذا كانت هذه النسبة قد تغيرت بشكل كبير في مرحلة معينة من الوقت وفي مناطق محددة. مع دراسة المظاهر التي تتعلق بها مثل عدم توفر الأراضي المربحة (الأرض التي يكون ناتجها مساوياً لما أفق عليها)، ارتفاع أسعار الأراضي، زيادة عدد المزارعين غير الملاكين والهجرة، واستخلص أن «النمو السكاني كان أكثر سرعة من زيادة نمو المحصول». وناقش أيضاً «التشعب الديموغرافي في ظروف القرن السادس عشر». واقترح كوك حسابات للنسبة بين النمو السكاني وزيادة المحاصيل 17 على 12 في فترة 1475 - 1575 مستخدماً كمؤشر المستوى الأساسي 10 سنة 1475. ويجب أن نلاحظ أن معدل ملكية الأراضي للعائلة الفلاحية قد انخفض من نصف Çift إلى ثلث أو بالأحرى ربع Çift في نهاية الفترة، في المناطق الخاضعة للدراسة. انخفاض حجم مزرعة العائلة هو بلا شك إشارة إلى أزمة للسكان الريفيين إضافة إلى نظام Çift-Hane (قطعة الأرض - العائلة) ككل. ولفت كوك أيضاً الانتباه إلى حقيقة أن أسعار المواد الغذائية قد ارتفعت بوتيرة أسرع من ارتفاع الأجور ولكن لا يوجد أي دليل إحصائي على ذلك. والاستغلال المكثف للأرض أو الانتقال إلى زراعة محاصيل مربحة أكثر اقترحاً أيضاً كدلائل على الضغط السكاني<sup>(1)</sup>. وتتفق (ثريا) فاروقي Farوقي مع مايكل كوك في ملاحظة التعارض بين زيادة السكان ونمو إنتاج الحبوب. وقد درست فاروقي واردر Erder التغييرات السكانية في مناطق سبين قره حصار وكوكايلي Kocaeli في فترتين<sup>(2)</sup>. وفي كلتا الحالتين لاحظ المؤلفان أن «بعض الانحدار السكاني حدث في نهاية القرن السادس عشر». وأكدوا «أن هذا كان في الواقع ظاهرة شاملة».

Islamoglu-Inan. H. (1987), ed. The Ottoman Empire and the world-economy, (1) Cambridge. pp. 107-28.

Erder, L. and S. Farوقي, (1979). «Population rise and fall in Anatolia, 1550-1620», (2) MES, XV, 322-45.

ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار بعض التطورات غير المتوقعة في التقديرات السكانية والتغيرات. فمثلاً، الزيادة الحادة في مجموع السكان في منطقة قره حصار، والهجرة الجماعية للسكان المسيحيين من شرقي الأناضول نتيجة عمليات السلب من قبل الجلالى Celali يمكن أن تشكل تفسيراً آخر. وتقترح فاروقى أنه، وعلى الرغم من المنع القانونى، كان هناك اتجاه لتقسيم وحدات ال Çift خلال القرن السادس عشر وقد يكون هذا إحدى نتائج الزيادة السكانية (الجدول 5: I).

الجدول رقم 5: I تقديرات الكثافة السكانية للإمبراطورية العثمانية والدول الأوروبية 1600 (أشخاص بالميل المربع)

الكثافة	البلد
97	Italy
86	France
112	Low Countries
56	Britain
41	Turkey in Europe (The Balkans north to the Danube and Drave Rivers)
20	Turkey in Asia (Approximately Turkey today, excluding Thrace)

المصدر: Mc Gowan (1982), p. 174

### التحركات السكانية

منذ البداية، تكوّن المجتمع العثمانى من المهاجرين، والجماعات المستأصلة من جذورها، الرعاة الباحثين عن المرعى، الجنود العاطلين عن العمل أو الشباب المزارعين الذين لا يملكون أرضاً، الساعين إلى النجاح وحياة جديدة في التخوم. المؤرخون العثمانيون الشعبيون الأوائل قالوا: «هؤلاء العثمانيون تعاطفوا مع الغرباء الذين لا جذور لهم»<sup>(1)</sup>. ومما لا شك فيه أن العثمانيين كانوا يعتقدون أن الازدهار وزيادة مداخيل الدولة كانا

(1) Gruç. B. A. (1925). Die Frühosmanischen Jahrbücher des Urudsch, ed. by F. Babinger, (1)

يعتمدان أساساً على النشاط والمهارة الإنسانيين. وسرى أن مالكي التيمار أو الأمناء على الوقف شجعوا الناس على المجيء والاستقرار في أراضيهم لأن أهم وسائل الإنتاج كان العمل في هذا الاقتصاد الريفي مع توفر أراضٍ حدية غير محدودة للزراعة.

وقد استقبل العثمانيون دائماً اللاجئين. عشرات الآلاف من اليهود المطرودين من أسبانيا، والبرتغال وإيطاليا جاؤوا وأسسوا مجموعات مزدهرة في المدن تحت حماية السلاطين العثمانيين خلال وبعد سنة 1492. مجموعات من المور Mariscos الذين طردوا من الأندلس Andalusia في القرن السادس عشر استقروا في قلب غلطة Galata<sup>(1)</sup>.

المنشقون عن الكنيسة الأرثوذكسية الروسية «Old Believers, Raskolnik» استمروا في السكن حتى القرن العشرين في شمال غرب الأناضول. وفي القرون الأخيرة للإمبراطورية، مئات الآلاف الهاربين من الغزو الروسي للبلقان، وبلاد الشركس Circassia والقرم Crimea، استقبلوا وأسكنوا من قبل الحكومة العثمانية في الأناضول<sup>(2)</sup>.

وعلى الرغم من أن البدو الرعاة ينتقلون في الغالب ضمن مجالهم Yurt، والذي يتكون من منطقة أراضي رعوية صيفية وشتوية محددة، وهم كثرة بصفة خاصة في المناطق الواسعة الممتدة من صحراء شمالي سوريا والعراق إلى غربي الأناضول، إلا أنهم أحياناً يهاجرون كمجموعات للبحث عن مراعي أفضل عندما تضعف سلطة الحكومة المركزية أو عندما يدفعون من قبل مجموعات بدوية أكثر قوة. ولذا، فإن تدفقات مستمرة من البدو، تركمانيين بأكثرية، ولكن البعض منهم كانوا أكراداً وعرباً أيضاً تحركوا من

(1) Inalçik, (1991). «Ottoman Galata, 1453-1553», in E. Elder, ed., Première rencontre internationale sur l'empire Ottoman et la Turquie moderne, Istanbul, pp. 67-70.

(2) Karpat, K. (1985). Ottoman population: demographic and social characteristics, Madison.

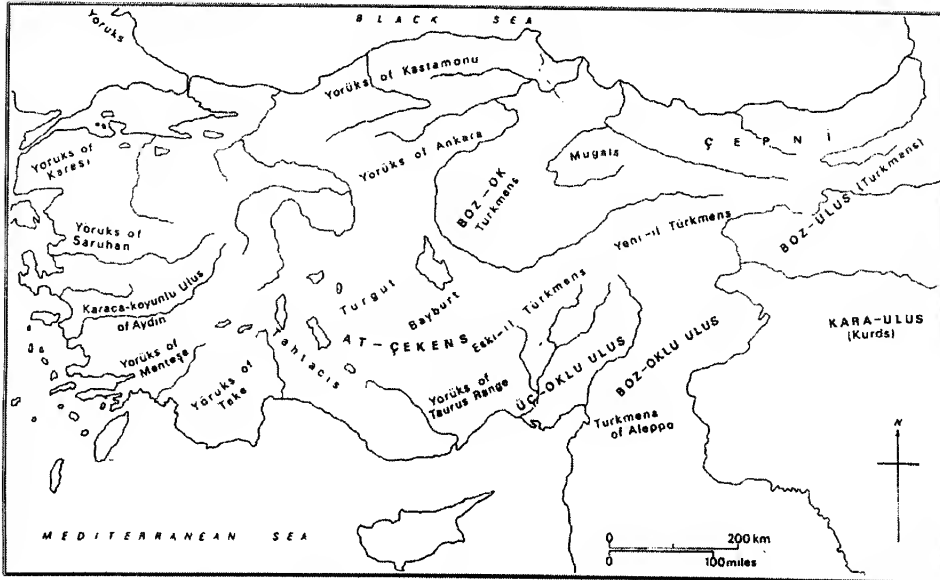
الشرق إلى الغرب، ووصلوا إلى غربي الأناضول، وجزر بحر إيجه والبلقان خلال التاريخ العثماني.

ومن ناحية ثانية، فإن سياسة الترحيل التي اتبعتها الحكومة، والانتفاضات السياسية والاجتماعية قبل تخريب الجلالى وأحياناً الضغط السكاني في منطقة معينة، كلها لعبت دوراً أساسياً في التنقل السكاني في الإمبراطورية. هجرات البدو الرعاة كانت دائماً وبشكل خاص ذات نسق بارز.

وكما كان معروفاً بالنسبة للإمبراطوريات البيزنطية والإيرانية، فإن العثمانيين أيضاً اتبعوا سياسة الترحيل بالقوة للسكان في محاولة للتخلص من أي مجموعة إثنية متمردة أو لإقامة مستوطنات في منطقة معينة ذات أهمية خاصة بالنسبة للدولة. فنجد مثلاً مجموعات ثائرة مثل ال Çepni التركمانيين من منطقة كانيك Canik في البحر الأسود والذين استقروا في البانيا في أوائل القرن الخامس عشر، والتتار من منطقة توكات - أماسيا Tokat-Amasya استقروا في وادي ماريتسا Maritsa، وتركمان صاروخان (غربي الأناضول) في ضواحي سكوبجي Skopje في التسعينات من القرن الرابع عشر. وحدثت استيطان على مدى واسع في عهد محمد الثاني عندما رحل مجموعات من الفلاحين من الأراضي المفتوحة حديثاً في صربيا والموره، وبدواً من التركمان إلى القرى المجاورة لأسطنبول والتي خسرت سكانها اليونانيين خلال حصار القسطنطينية. وفي سنة 1455، رحل أيضاً كل المجموعات اليهودية في مدن البلقان من أجل إعادة السكان وتحريك النشاطات الاقتصادية في عاصمته الجديدة اسطنبول<sup>(1)</sup>. كما تسبب أيضاً في استقرار اليونانيين في اسطنبول من خلال فتوحاته المتتابة في المورة، جزر بحر إيجه، طرابزون، وبعض مدن وسط الأناضول. سكان أرمن من وسط الأناضول، ومسلمون من الأناضول أحضروا إلى اسطنبول في سنوات 1459 - 75. أما سليم الأول فقد أحضر إلى اسطنبول 200 عائلة من الحرفيين من تبريز و500 عائلة من القاهرة.

وحدث تنقل سكاني واسع كنتيجة للاضطرابات التي أحدثتها عصابات الجلايلي Celali في الأناضول في فترة 1596 - 1610<sup>(1)</sup>. وفي المصادر المعاصرة فإن الخروج إلى المقاطعات الأخرى في المناطق البعيدة مثل الروملي، القرم وسوريا أطلق عليها اسم «الانتقال العظيم» (The great flight). ثم اتخذت الحكومة إجراءات صارمة للتأكد من عودة هؤلاء الفلاحين إلى قراهم المهجورة في الأناضول<sup>(2)</sup>.

وفي سنة 1613 ومع بداية الفوضى التي أحدثتها الجلايلي فإن العشائر التي تشكل الـ Boz-Ulus التركمانيين في شرقي آسيا الصغرى بدأت بالتحول نحو وسط الأناضول حتى كوتاهيه، مسببين أضراراً كبيرة للأراضي المزروعة التي مروا بها<sup>(3)</sup>. وخلال القرن السابع عشر، فإن الهجرة من وسط الجزيرة



Akdag, M. (1963). Celali Isyanları (1550-1603), Ankara. pp. 250-54; MTM, I, p. 82. (1)

Inalçık, (1965b). «Adaletnâmeler», BL, II, 49-145. pp. 126-27. (2)

Güçer, I. (1964). XVI-XVII. Asırlarda Osmanlı İmparatorluğunda Hububat Meselesi, (3)

Istanbul. p. 18.



العربية من جانب القبائل العربية الضخمة من سمر وعنيزة إلى شمالي الصحراء السورية تسببت في الهجرة الكثيفة للعشائر التركمانية والكردية إلى وسط وغربي مقاطعات آسيا الصغرى. ولذا نجد آنذاك Boz-Ulus تركمانيين في مناطق أنقرة، أيدين، وأماسيا - توكات<sup>(1)</sup>.

### السكان البدو التركمان واقتصادياتهم

إن سلاجقة الأناضول الذين يمثلون دولة بيروقراطية مركزية قد دعموا الفلاحين والمصالح التجارية ضد التركمانيين الرعاة الذين دُفِعوا من قبل الدول إلى الأراضي الحدية، وكان هؤلاء التركمانيون متجمعين في مناطق التخوم والأراضي الرعوية الجبلية من جبال طوروس في الجنوب إلى جبال بونتيك Pontic التي تمتد من بولو Bolu إلى طرابزون في الشمال. وفي سهول وسط الأناضول الجافة من قونيه إلى أنقرة كان هناك تجمع تركماني رعوي آخر. وفي الواقع، وبسبب الحاجة إلى الانتقال الموسمي بين الأراضي الرعوية الصيفية والشتوية، Kislak و Yaylak، اصطحب التركمانيون قطعانهم في الشتاء إلى الأراضي المنخفضة في وديان الأحواض النهرية الأساسية في جنوبي وغربي الأناضول<sup>(2)</sup>. وقد تجاهلوا الحدود ودخلوا في عمق وديان الأناضول الغربي، التي كانت تحت السيطرة البيزنطية<sup>(3)</sup>، من القرن الحادي عشر حتى الوقت الذي استطاعوا فيه فتح هذه الوديان والاستقرار فيها تحت قيادة الغزاة<sup>(4)</sup>.

Barkan, (1955-56). Osmanli Bütçeleri», IFM, XVII, 193-347, p. 203.

(1)

Planhol, X. de. (1958) De la plaine pamphylienne aux lacs pisidiens, nomadisme et vie paysanne, Paris: Hüttheroth, W. D. (1974). «The influence on social structure of land division and settlement in Inner Anatolia». in Benedict, Tümertekin and mansur, eds. 19-47, pp. 30-40.

(2)

Vryonis (1971), pp. 143-287.

(3)

Wittek, p. (1934). Das Fürstentum Mentesehe. Studie sur Geschichte westkleinasiens im 13-15. Jahrhundert, Istanbul.

(4)

وهؤلاء البدو الأتراك الذين عرفوا بالتركمان Türkmen، يوروك Yörök ثم لاحقاً قزل باش Kizilbas<sup>(1)</sup>، كانوا يشكلون حوالي 15 بالمائة من السكان في مقاطعة أناضولو Anadolu (التي تمتد على طول خط بين سينوب Sinop وخليج أنطاليا Antalya في الغرب) في العشرينات من القرن السادس عشر. وإذا أضفنا المجموعات العسكرية ذات الأصول الرعوية مثل Yaya و müsellem فإن هذه النسبة ترتفع إلى 27، في الحقيقة، إن تجمع ال Yörük العظيم كان موجوداً في المقاطعات الصغرى لأنقرة، كوتاهيه، منتشا، آيدين، صاروخان، تاكي Teke، وحميد Hamid. هذه السناجق السبعة مجتمعة كان عدد سكانها من البدو حوالي 80,000 عائلة<sup>(2)</sup> (راجع الجدول 6: I).

الجدول رقم 6: I: العائلات البدوية (hane) لغربي الأناضول (Anadolu beglerbegiligi) من خلال السجلات العثمانية الإحصائية للفترات 1520 - 35 و 1570 - 80

سنجق	1520 - 35	1570 - 80
Alaiye	227	455
Ankara	9,484	23,911
Aydin	6,692	3,693
Biga	99	2,066
Bolu	461	2,003
Hamid	4,978	11,814
Hüdavendigar	1,600	2,055
Karahisar-Sahib	2,385	1,729
Karesi	-	2,445
Kastamonu	1,248	1,457
Kiangiri (Çankiri)	؟	976
Kocaeli	؟	؟

Inalçık (1986a), pp. 41,47.

(1)

Ibid., p. 45.

(2)

Kütahya	15,164	23,935
Mentese	19,219	16,912
Saruhan	6,640	15,072
Sultanönü	255	2,095
Teke	8,816	5,601
المجموع	77,268	116,219

المصدر: Barkan (1957), p. 30

وكانت هناك أعداد كبيرة من القبائل التركمانية منذ الغزو التركي الأول للأناضول في العقود الأخيرة للقرن الحادي عشر<sup>(1)</sup>. ولاحقاً، كان هناك تدفق مستمر من البدو، بأكثرية تركمانية، استمر في زيادة السكان البدو في المنطقة.

وبينما كان النمو السكاني العام في غربي الأناضول من الفترة 1520 - 35 إلى 1570 - 80 قد حُسب على أنه 42 بالمائة، فإن نمو السكان البدو كان 52 بالمائة، وهذه الحقيقة يمكن تفسيرها بالهجرة من الشرق بدلاً من النمو الطبيعي<sup>(2)</sup>. إن الهجرة الواسعة نحو الداخل الغربي قد اكتسبت زخماً عندما أسس العثمانيون مواقعهم المتقدمة في البلقان سنة 1352. وعندما اصطدمت غزوات التركمانيين المهاجرين في أزمير بالصليبيين الغربيين<sup>(3)</sup>، سنة 1348، فإن الهجرة التركمانية اتخذت اتجاهاً جديداً وبدأ الخروج من مناطق دنيزلي Denizli - آيدين - صاروخان إلى الدردنيل، ومن هناك إلى ثراث Thrace وشرقي البلقان خلال الفتوحات العثمانية الأولى. وقد أظهرت الإحصاءات العثمانية أن هذه الهجرة التركمانية الواسعة والاستيطان كانت لهما آثاراً ثورية على ديموغرافية شرقي البلقان وثرث. وقد ترافق مع السياسة العثمانية القائمة على نقل المجموعات البدوية الفوضوية إلى البلقان من أجل التريك وتأمين

(1) Vryonis (1971), pp. 223-44.

(2) Inalçik (1986a), pp. 45-46.

(3) Inalçik (1985a). «The rise of the Turcoman maritime principalities in Antolia, Byzantium, and Crusades», BF, IX, 179-217, pp. 197-99.

فتوحات جديدة، درجة واسعة من الهجرة الطوعية التي حدثت خلال القرن الرابع عشر في نفس المناطق. وتوضح خريطة مفصلة مبنية على الإحصاءات العثمانية من قبل بركان Barkan هذا التغير الأساسي في التركيبة الإثنية للسكان<sup>(1)</sup>. وكما حدث سابقاً في غربي الأناضول فإن هذا لم يكن، إذا استخدمنا كلمات سبيروس فريونيس Speros Vryonis «فتحاً عسكرياً نموذجياً... وإنما هجرات إثنية لشعوب بدوية وينسب عدديّة ضخمة»<sup>(2)</sup>. وفي شرقي البلقان بين البحر الأسود وخط يمتد على شواطئ مستا Mesta وينطرة Yantra، شكلت المستوطنات التركية أكثرية السكان، بدواً كانوا أم حضراً، في بداية القرن السادس عشر (الجدول 7: I).

الجدول رقم 7: I الميليشيات من أصل Yörük في البلقان 1560

Under Subasi	Subasi	Eskunci	Yamak
(قادة)		(جنود)	(مساعدين)
Solonica (Macedonia, Thessaly)	13	3,000	9,000 (600 ocak)
Vize (northern Thrace)	4	525	1,575
Yanbolu (Upper Tunca river)	?	?	?
Naldöken (Eski-Zagra, Filibe)	42	1,715	7,548
Ofçabolı (İstip-Üsküp)	1	485	2,218
Kocacik (Yanbolu, Varnas, Shumen)	?	900	2,700
Tanridag (Western Thrace, Thessaly)	47 (in 1591)	2,125	14,710
Kesriye (Castoria area)	?	?	?

المصدر: (1957) Cökbilgin

(1) Barkan, (1953-54). «Osmanli Imparatorlugu Bütçelerine dair Notlar», IFM, XV, 239-329. pp. 209-39; Barkan. (1946-50). «Deportations comme méthode de peuplement et de colonisation dans l'empire Ottoman», IFM, XI, 524-69; XIII, 56-79; XV, 209-329. map.  
VRYONIS, (1975). «Nomadization and Islamization in Asia Minor», DO.

وقد أعادت الإدارة العثمانية تنظيم القبائل الرعوية في شرقي الأناضول إلى اتحاديين كونفدراليين كبيرين: التركمان في تحالف Boz-Ulus والأكراد في تحالف Kara-Ulus. وقد وقعت منازعات شبه دائمة بين هذين الاتحاديين.

وفي هذا الوقت فإن معظم الأتراك كانوا قد تحولوا إلى حياة حضرية في المدن والقرى. وحتى عندها، فإن التركمان كانوا لا يزالون يشكلون الكثافة السكانية في منطقة شرقي البلقان الممتدة بين آيتس Aytos وستارا زاكورا Stara Zagora، وفي الرودويس Rhodoe بين بتاك، هستوفو Batak، وكوموتيني Komotini. تجمع آخر لليوروك Yörük ظهر في المنطقة الجبلية شمال سلونيك Solonica. وسهوب دوبروجا Dobruja في شمال فارنا Varna وشومان Shumen كانت مسكونة تقريباً بالكامل من اليوروك. وبالعكس ففي غربي البلقان كانت هناك مجموعات يوروك متفرقة في المنطقة غرب أنهار ميستا Mesta وينطرة Yantra. وكذلك عاشوا في المرتفعات شمال سكوبيجي Skopje وفي جبل كراتوفا Karatova جنوب كوستانديل Küstendil. ومن ناحية ثانية، استقرت مجموعات كبيرة من البدو اليوروك في وادي مارتيسا Martisa بين هسكوفو Haskovo وبزارجيك Pazarjik، وكانوا مقيمين هناك في المدن والقرى في أوائل القرن الخامس عشر. وبالنسبة إلى السجلات العثمانية في أوائل القرن السادس عشر فإن المسلمين البدو في البلقان كانوا كما هو موضح في الجدول 8: I.

الجدول رقم 8: I: المسلمون البدو في البلقان

العائلات	
Yörük	14,435
(المنظمين عسكرياً) Yörük	23,000
Müsellems (of Yörük origin)	12,105
المجموع	49,540

الجدول رقم 8 a: I الاتحادات القبلية في شرقي الأناضول

مجموع الضريبة الواجب دفعها (بالأقجة) (akça)	الغنم	العائلات	
مليون 2. C.	1,998,246	7,325	Boz-Ulus (Turcomans)
مليون 1. C.	؟	؟	Kara-Ulus (Kurds)
100,000	؟	؟	Sam (Damascus) Turcomans
14,806		273	عشائر أخرى متفرقة في مقاطعة دياربكر

المصدر: Barkan (1943), pp. 143-44.

وخلال انتقالهم الفصلي بين الأراضي الرعوية الشتوية في سهوب برّيي Berriye في شمالي العراق، وجبال البنغول Bingöl في الشمال بين نهري مراد والفرات كان على قبائل الـ Boz-Ulus أن تدفع رسوماً مختلفة للعديد من الزعماء الأكراد المحليين (الجدول 8a: I). وقد ألغت الإدارة العثمانية هذه الرسوم واستبدلتهم بضريبة واحدة تتكون من خروف واحد عن كل قطيع من 300 رأس، تدفع لخزينة الدولة على معبر نهر مراد<sup>(1)</sup>. وفي إيجيلي Içili، في قلب جبال طوروس، شكّل اليوروك أكثرية السكان<sup>(2)</sup> وكانت هناك هجرة دائمة للمقاطعات المجاورة حيث انخرطوا في الزراعة في القرن السادس عشر. وكانوا يترحلون إلى السهول الساحلية في الشتاء<sup>(3)</sup>. وفي سنة 1530 تحضّر

(1) Barkan, (1943). XV. ve XVI. Asirlarda Osmanli Imparatorlugu'nda Zirai Ekonominin Hukuki ve mali Esaslari, Istanbul. pp. 140-42.

(2) Barkan, (1955-56) (1943) p. 52.

المقالة التاسعة عشر، البدو يشكلون 54 بالمئة من مجموع السكان في ذو القادرية، و58 بالمئة في مقاطعة حلب، و62 بالمئة في مقاطعة بغداد في الفترة ما بين 1580 - 90، راجع أيضاً:

Murphey R. (1111). «Some features of nomadism in the Ottoman Empire», JTS, VIII: T. Halasi-Kun Festschrift, 189-97. p. 192.

(3) Barkan (1943), p. 53, article 23.

العديد منهم، أو انخرطوا في زراعة الحبوب أو زراعة الكرمة كنشاطات إضافية.

### البدو والاقتصاد

من المُضلل أن نتبع وبشكل غير نقدي أحكام السكان الحضر، وبخاصة بيروقراطيو الإدارة المركزية، فيما يتعلق بالبدو<sup>(1)</sup>. في الحقيقة شكل التركمان البدو جزءاً متكاملًا مع المجتمع الحضري وقاموا ببعض الأعمال التي بدونها لا يمكن للمجتمع أن يستمر.

والدولة العثمانية، معترفةً بهذه الحقيقة، اتخذت إجراءات لتكييف البدو مع نظامها الإمبراطوري<sup>(2)</sup>. فأعطت كل عشيرة Yurt. (اليورت يتكون من أراض رعوية صيفية وشتوية ذات حدود واضحة ومسجلة في السجلات الإمبراطورية). وفي مناطق الـ Yurt هذه، ومع العناية بالماشية، انخرط التركمان، ولو هامشياً، في الزراعة. وقد استصلحوا أراضي في الغابات والمستنقعات لزراعة القمح والقطن والرز لتأمين حاجاتهم وحاجات السوق. ومعظم أراضي الأودية النهرية في غربي الأناضول، مثلاً، كما في أدنى كيليكيا Cilicia كانت هناك مستنقعات تنتشر فيها الملاريا متروكة بدون استخدام. وعند مجيئهم للإقامة الشتوية فيها استصلح التركمان البدو جزءاً من هذه الأراضي من أجل محاصيل تدر عليهم أموالاً نقدية صعبة؛ كالقطن والرز<sup>(3)</sup>. وعند رحيلهم إلى المراعي الصيفية كانوا يتركون مراقبين ليعودوا من

(1) Vryonis (1975), p. 57. يعترف بأن تكافلاً تدريجياً قد حصل بين اليونانيين والأتراك.

(2) Lindner, R.P. (1983). Nomads and Ottomans in medieval Anatolia, Bloomington. pp. 51-74.

يعتبر أن الدولة العثمانية اتبعت سياسة ضرائبية تعمدت تدمير البدو التركمانيين اقتصادياً كي لا يكون عندهم أي خيار سوى أن يصبحوا حضراً، أيضاً إينالجيک (1986)، ملاحظة 67.

(3) Soysal, M. (1976). Die Siedlungs-und Landschaftsentwicklung der Çukurova, Erlangen. pp. 24-28.

أجل الحصاد. هذه المستوطنات المؤقتة تحولت إلى قرى صغيرة مع مرور الوقت. وتُظهر الإحصاءات العثمانية أن التركمان قد زرعوا في بعض أراضي غربي الأناضول الواطية القطن الذي يباع للإيطاليين في مرافئ Ayasoluk (Ephesus)، وبالاتيا Palatia (Balat) أو في جزيرة خيوس Chios. والقيمة الإجمالية للقطن الخام المُشترى من قبل الجنوبيين هناك بلغت مبلغاً عظيماً يعادل أكثر من نصف مليون دوكات ذهبية في الخمسينات من القرن الخامس عشر<sup>(1)</sup>.

باغولوتي Pegolotti (حوالي 1340) ذكر بعض المواد المصدرة مثل القمح، الأرز، الشمع، القنب، العفصة الجوزية gallnut، الشبّ alum، الأفيون، جذر الفوة (وكان يستعمل في الصباغة)، الفلّون (أقماع ثمر البلوط المجففة المستخدمة في الدباغة) Valonia و«الحرير التركي»<sup>(2)</sup>. وفي المعاهدات التجارية بين أمراء التركمان والدول المركتلية الإيطالية ذكر بشكل خاص القمح، الثمار المجففة، الأحصنة، الثيران، الغنم، العبيد، الشمع، جلود الحيوانات والشبّ كسلع للتصدير، والنبيد، الصابون، والأنسجة كسلع للاستيراد. ودراسات إليزابيت زاكاريادو Zachariadou<sup>(3)</sup> المعتمدة على المصادر اللاتينية تظهر عودة النشاط الاقتصادي لغربي الأناضول في ظل الإمارات التركية، مما يعدّل الصورة المتشائمة للخراب الكامل والانحطاط للمنطقة الخاضعة للحكم التركماني. ومع مرور الوقت، وبسبب تسامح الأمراء، ظهر نوع من التكافل بين السكان التركمانيين واليونان.

Heers, J. (1961). *Gênes au XVe siècle, activité économique et problèmes sociaux*, Paris. (1)  
p. 393.

Pegolotti, F. B. (1936). *La pratica della mercatura*, ed. by A. Evans, Cambridge, Mass. (2)  
pp. 293-300, 360-83, 411-35.

Zachariadou, E.A. (1983). *Trade and Crusade, Venetian Crete and the Emirates of* (3)  
Mentesche and Aydin (1300-1415), Venice. pp. 125-73.

يعدّل في نظرية الانحطاط لفريونيس Vryonis, (1971), pp. 144-45



والى جانب القمح والقطن، فإن تصدير السجاد أصبح موضوع تجارة عالمية وكان له تأثير كبير على الاقتصاد والمجتمع التركماني في غربي الأناضول<sup>(1)</sup>. وفي الثلاثينات من القرن الرابع عشر، قال ابن بطوطة<sup>(2)</sup>، في حديثه عن أقسراي Aksaray المجاورة لقونية: «إنهم يصنعون هناك سجداً من صوف الغنم يسمى باسم المكان، ولا يوجد ما يوازيه في أي بلد آخر؛ ويصدّر من هناك إلى سوريا، ومصر، والعراق، والهند، والصين، وإلى أراضي الترك». ولاحقاً أصبحت منطقة حوض Usak-Gördes-kula في أعلى نهر Gediz مركزاً عالمياً معروفاً لصناعة السجاد. وهذا التطور الفريد ترافق مع عوامل مختلفة. جغرافية المنطقة مع الأراضي الرعوية العالية في الجبال المحيطة المسكونة بكثافة بالتركمانيين الرعاة أمنت الصوف الوفير والرخيص وكذلك العمال الماهرين. أفضل أنواع الشّب والقوة للصباغة، الينابيع المتدفقة لغسيل الصوف الخام وصقل السجاد ونهر Gediz للنقل إلى البحر، كل ذلك وفّر الشروط المثالية. وبمرور الوقت قامت مدن مزدهرة في الحوض كانت كلها مسكونة بالتركمان، الذين كانوا يمضون شهرين أو ثلاثة كل صيف في الجبال المحيطة<sup>(3)</sup>.

ويجب أن لا نغفل عن أن رعاية الماشية أمنت المنتجات الغذائية والمواد الخام الأساسية مثل الصوف والجلود للصناعات المدنية وكان لها أثر اقتصادي حيوي في المجتمعات ما قبل الصناعية في الشرق كما في أوروبا.

(1) بسبب أشكاله الجمالية واللوانه البراقة علّق السجاد التركماني على جدران الكنائس ومكاتب الأعمال في المدن الأوروبية ونُسخ في رسومات بعض الجهازة مثل carpaccio ولوتو lotto

أو هولبين Holbein : راجع

Yetkin, S. (1972). Historical Turkish carpets, Istanbul; Aslanapa, O. and Y. Durul Tirk hale Sanati, Istanbul; Rogars M. (1990-91). «To and from: aspects of Mediterranean Trade and consumption in the 15th and 16th centuries». ROMM. 55.

Ibn Battuta (1962). The travels of Ibn Battuta, A.D. 1325-54, ed. by H.A.R. Gibb, (2) Cambridge. pp. 432-33.

Inalçik (1968a), pp. 54-55.

(3)

وليس بمستغرب أن الصوف والجلود يأتیان دائماً في مقدمة لائحة المواد المصدرة إلى أوروبا من الأناضول العثماني والبلقان من القرن الرابع عشر إلى القرن العشرين.

حقيقة أخرى حول الرعاة الأناضوليين هي أنهم قد احتكروا المواصلات البرية في الإمبراطورية ليس فقط على الصعيد الخاص وإنما أيضاً على صعيد مؤسسات الدولة. الجمل هو الحيوان الأهم عند اليوروك. والجمال كانت تستخدم عادةً لنقل الأمتعة في الظروف الصعبة، إلا أن اليوروك استخدموها أيضاً في مصلحة النقل ولكسب المال. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أهمية الجمل، فإنه لم يذبح من أجل الطعام، وسمي بمادة «رأس مال مهم». حتى أصبح بعض الرعاة رأسماليين، يوظفون رعاة آخرين للعناية بالقطعان ويفرغون أنفسهم للمواصلات الطويلة المدى أو لتجارة الماشية.

سنة 1555 كانت ملاحظة السفير الإمبراطوري بوسبك Busbecq<sup>(1)</sup> أن الإمبراطورية العثمانية أصبحت على ما هي عليه بفضل الأرز والجمال توضح لنا نقطة هامة (الأرز كان الطعام الأساسي في الحملات بسبب متانته وسهولة تخزينه). وقد نسل التركمان هجيناً من الجمال مستخدمين الجمل العربي (ذو السنام الواحد)، والأنواع ذات السنامين التي كانت تتناسب مع مناخ الأناضول البارد والممطر وأرضه القاسية. وقد لاحظ تفرنيه Tavernier أن نسلًا جديدًا استخدم في تنقلات القوافل بين تبريز واسطنبول؛ كان أكبر حجماً ويحمل حمولةً أكثر من الجمل العربي<sup>(2)</sup>، ويستطيع سحب نفسه من الوحل دون صعوبة. وقد اختفت حشود الجمال الأناضولية الكثيرة في القرن العشرين فقط عند انتهاء شبكة السكك الحديدية.

وقد استخدم الجمل في نقل كافة أنواع المعدات الثقيلة، كالأسلحة والذخائر ومؤونة الجيش، وكذلك في نقل المنتجات التجارية الثقيلة

(1) Foster, W. (1933). England's quest for eastern trade, London. pp. 108-10, 241.

(2) Tavernier, J.B. (1970). Voyages en Perse, ed. by V. Monteil, Geneva. pp. 36-37.

والضخمة. وللجمال قدرة حمل حوالي 250 كلف، أي ما يوازي ضعفي حمولة الحصان أو البغل، وكلفته قليلة نسبياً. وكان الجيش العثماني قادراً على الانتقال من الفرات إلى الدانوب بفصل واحد مع كل معداته الثقيلة وأسلحته. وبدون الجمل، فإن كلفة النقل ستمنع حمل القمح، والطحين والشعير لتأمين حاجة الجيش والحصون المنعزلة. وليس مصادفة أن بايزيد الأول أخذ عشرة آلاف جمل من منطقة انطاليا كجزء من غنيمة في سنة 1399. وكان سائقو الجمال في هذه المنطقة وفي غربي الأناضول إما تركمانيين أو «مهاجرين عرب»<sup>(1)</sup>. وباختصار، فإن الجيوش العثمانية اعتمدت على البدو سائقي الجمال لمواصلاتهم وخدماتهم اللوجستية. ولهذا السبب مجدداً لم تكن عند العثمانيين طرقات ذات سطحية قاسية. وعلى الرغم من أن البلاط احتفظ بعدد ضئيل نسبياً من الجمال لنقل حاجيات السلطان، إلا أنهم كانوا يوظفون عشرات الآلاف من الجمال وسائقيهم البدو للجيش خلال الحملات.

وعندما يضطر اليوروك في ظروف خاصة، لعيش حياة حضرية مستقرة في أماكنهم القيام بذلك دون صعوبة تذكر وخلال فترة تكيف قصيرة. ففي حياتهم الرعوية مارسوا غالباً الزراعة كمكمل لاقتصادهم. وقرى اليوروك معروفة بأنها أصغر حجماً وأكثر بدائية من القرى الكبيرة المجاورة كما يلاحظ في مناطق دلي أورمان Deli-Orman ودوبروجا Dobruja أو وسط الأناضول<sup>(2)</sup>.

وتبيّن سجلات الضرائب والسكان العثمانية للقرن الخامس عشر بأن أكثرية سكان غربي الأناضول من الحضر المستقرين كانوا عندها من أصول تركمانية. وبفضل ارتباطها مع التجارة الأوروبية عن طريق تصديرها للقمح،

Inalçik (1983d). «Arab camel drivers in western Anatolia in the fifteenth century», (1) *Revue d'Histoire Magrebine*, X, 247-70. pp. 263-67.

Inalçik, (1992a). *The Middle East and the Balkans under the Ottoman Empire: essays on economy and society*, Bloomington. Inalçik (1970b). *The foundations of the Ottoman economico-social system in cities*, in *La ville balkanique*, Sofia, 17-24; Tunçdilek, N. (1960) «Sakarya Vadisinin İktisadi Tarihi hakkında», IFM, XVII.

والقطن، والزبيب، والتين، والشب، والسجاد، والصوف، والجلود، أصبحت هذه المنطقة واحدة من أكثر المقاطعات ازدهاراً في الامبراطورية.

وقد نوقشت<sup>(1)</sup> فكرة أن النمو السريع للسكان الريفيين في القرن السادس عشر سبب توسعاً في الأراضي المزروعة على حساب الأراضي الرعوية، ولذا كان على اليوروك الانسحاب تدريجياً إلى الأراضي الحدية «Marginal Lands» على ارتفاع أعلى. إن العدد المتزايد لمستوطنات المزارعين في مناطق الغابات يُفسر أساسياً بهذا العامل. وفي القرن السادس عشر، أصبح الصراع بين الرعاة والفلاحين في شرقي الأناضول مسألة خطيرة للحكومة. وبخاصة عندما أصبحت منطقة رصيف أرضروم - بازين Erzurum - Pasin ممراً للجيش العثماني، فتخلى السكان الريفيون عن الأرض وتفرقوا.

ثم جاء الرعاة من الجنوب لاستخدام الأرض كمرعى صيفي. وعندما حولت الحكومة الأرض إلى تيمار للسباهيين، أحضر هؤلاء فلاحين إلى الأرض في محاولة لإعادتها مجدداً إلى أراضٍ مزروعة<sup>(2)</sup>. ومنذ ذلك الوقت منع الرعاة من رعي مواشيهم هناك. محبطين من أوامر السلطان، هدد هؤلاء البدو بترك البلد برمته والذهاب إلى أذربيجان تحت سلطة شاه إيران<sup>(3)</sup>. وفي الواقع، حدثت رحلات مستمرة للعشائر التركمانية إلى أذربيجان في القرن السادس عشر. الهجرة الموسمية للقبائل، وخاصة التركمان القزل باش، بحثاً عن المرعى على جانبي الحدود العثمانية - الإيرانية، كان أحد الأسباب الرئيسية للصراع بين العثمانيين والصفويين. ولأن الرعاة لم يعيروا انتباهاً للحدود السياسية، وُجد وضع مماثل بين بولندا والامبراطورية العثمانية في

(1) Planhol (1959). «Geography, politics and nomadism in Anatolia», International Social Science Journal, XI.

(2) قاد السباهيون الفلاحين في تحويل مراعيهم إلى حقول، راجع: Barkan (1943), pp. 27-29, 67.

(3) Sümer, F. (1957). «Azerbaycan'ın Türkleşmesi Tarihine Umumi bir Bakış», B. fasc. 83, 429-47.

نفس القرن. اليوروك الغربيون، في وسط الأناضول من منطقة سيواس Sivas إلى البحر الأبيض المتوسط ومن وادي سكاريا Sakarya إلى مقاطعة آيدن، استفادوا بشكل عام من الظروف المناخية الملائمة، فمارسوا الزراعة إلى جانب تربية المواشي، بينما كانت القبائل في شمالي سوريا وشرقي الأناضول تعتمد وبشكل كامل على الرعي<sup>(1)</sup>. وبشكل عام، ومن أجل زيادة مدخول تيماراتهم، كان السباهيون مهتمين بشكل خاص بتحويل المراعي المخصصة للبدو الرعاة إلى أراض مزروعة. وأحد الأعذار التي استخدموها كان الادعاء بأن البدو قد تخلوا عن الرعي<sup>(2)</sup>. وباختصار، فإن نظرية توسيع الأراضي المزروعة على حساب الأراضي الرعوية كان أحد حقائق أناضول القرن السادس عشر.

ولأن انتقال البدو من منطقة إلى أخرى لم يؤثر إجمالاً على العائدات الضريبية، وهو وضع كان لا يمكن تجنبه مع الفلاحين، استخدمت الدولة التركمانيين على نطاق واسع في الأعمال العامة. استخدمتهم كقوات إضافية في البلقان (الجدول I:7)، أو نقلتهم من الأناضول وأسكتهم في الروملي في أماكن استراتيجية هامة على طول الطرق، في الممرات الجبلية، الخ. ولأن قوة عمل البدو كانت معفاة من الضريبة استغلت بشكل واسع في المؤسسات المختلفة للدولة مثل المناجم، زراعة الأرز، أو تدريب الأحصنة للدولة. كما أسندت الدولة أيضاً إلى بعض المجموعات الخاصة من البدو مهمة التزويد النظامي للبلات والجيش ببعض المؤن، مثل السمن، والأقواس والسهام.

وبسبب طبيعة اقتصادهم الحساس، كان البدو أكثر تأثراً من السكان الحضريين بالعوامل غير الملائمة. فأي وباء يمكن أن يقضي على حيواناتهم، قد يحولهم إلى حالة الفقر المدقع. وفي ظل ظروف كهذه، كانوا يلجأون إلى

(1) Sümer, F. (1949-50) «XVI, Asirda Türk Asiretlerine Umumibir Bakis», IFM, XI, 509-

23. p. 516.

Barkan (1943).

(2)

قطع الطرق أو ينضمون للجيش الإمبراطوري كمرتزقة من أجل معاش ضئيل. ولأنهم كانوا مجموعة غير مميزة وثنائية في المجتمع العثماني، انضموا إلى كل حركة معارضة للنظام القائم. ولأنه يصعب الوصول إليهم في جبالهم، أصبح التمرد مستوطناً مع اليوروك في منطقة طوروس وبين القبائل الألبانية في البلقان. وفي شرقي آسيا الصغرى، حيث ساد الاقتصاد الرعوي، حاولت الإدارة العثمانية التوصل إلى تسوية مع القبائل محترمة استقلاليتها في ظل قيادتها الموروثة. وكانت الضرائب، الضئيلة القيمة، تُجمع وتُرسل من قبل الزعيم. وفي مقابل امتيازاته، كانت الخدمة العسكرية الإجبارية تحت قيادة الزعيم الموروثة مطلوبة.

إن سكان الجبال المسلمين والمسيحيين أظهروا بعض الخصائص المشتركة. الإدارة الامبراطورية عمدت عادةً، إلى تقسيم القبائل الكبيرة التقليدية إلى عشائر مستقلة بقيادة زعماء منضبطين ومُعترف بهم رسمياً. وعلى الرغم من أن مناطق رعيهم Yurt والطرق التي يسلكونها في انتقالهم الفصلي بين المراعي الصيفية والشتوية كانت محددة في سجلات رسمية، فإن الخلاف مع الفلاحين والسلطات الإدارية لم يكن أمراً غير مألوف. فالرعاة كرهوا التقييدات البيروقراطية والتسجيلات والضرائب، وعندما تضعف السلطة المركزية، يصبح استياؤهم خارج حدود الإنضباط.